151

جائزة الشارقة للإبداع العربي

الإصدار الأول | الدورة 9 | 2005

الأول في مجال القصة القصيرة

الكابوس

سناء كامل أحمد شعلان

الكابوس

"مجموعة قصصيّة"

سناء كامل أحمد شعلان

إصدرات دائرة الثقافة والإعلام،حكومة الشارقة ٢٠٠٦م

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

حقوق النشر والطبع محفوظة

الناشر:دائرة الثقافة والإعلام

حكومة الشارقة–دولة الإمارات العربية المتحدة

ص.ب:٥١١٩ الشارقة

هاتف:٩٧١٦٥٦٧١١١٦+

برّاق:٩٧١٦٥٦٦٢١٢٦+

بريد إلكتروني:sdci@sdci.gov.ae

تدقيق:شروق محمد

٨١٣و٠٣٩٥٦٨ سناء كامل شعلان

س.أ.ك الكابوس:قصة/ شعلان، سناء كامل – الشارقة:

دائرة الثقافة والإعلام،٢٠٠٦

١٨٠ص؛٢١– جائزة الشارقة للإبداع في مجال القصص ٢٠٠٥

١– القصص العربية– الأردن أ– العنوان

ب– السلسلة.

ISBN 9948-04-356-1

ISBN 9948-04-103-8

نعيش كوابيسنا دون أن ندرك ذلك،وعندما ندخل في مرحلة الإدراك نكتب عنها...

فهل تكون الكتابة خلاصاً؟ أم إرهاصة المخاض؟

سناء

الكابوس

(١)

كابوسه

ثوانٍ فقط بعد أن يغمض عينيه، ويتدّثر بدثارٍسميك تمضي ، ثم ينسرب في دوامةٍ سوداء تبتلعه بسكون لذيذ ، اسمها النّوم ، ما عرف يوماً قلقاً أو أرقاً ، فهو كما يحلو له أن يصف نفسه بتبجّح يملك النوم في قبضة يده ، لحظة، ثم يصبح أسيره دون مشاكل أو انتظار، وإن كان يلقي صعوبة دائمة في أن يستيقظ،فهو من عشّاق النوم ،ومن الذين يملكون فلسفة بشأنه ،تتلخّص بالاستسلام له ،وملازمته طويلاً، والتبتّل في محراب سحره ،وإن كان لم يعرف يوماً متعة أو نشوة حلم ، فقد كان سلطاناً للنوم لا للأحلام ، تمنّى كثيراً أن يحصل على حلم، حلم واحد

فقط ، كلّ من حوله يعتاشون على عذب أحلامهم ،بعض أصدقائه كان الحلم هو محقق نشوتهم ، ومفرغ رغباتهم المدفونة ، يفجّرونها سخينة مشتهاة ، ويستيقظون بكامل الراحة والسعادة ، في حين كانت أمّه تصيّر حياتها وَفْقَ أحلامها ، أمّا جدّته فكان لها باع طويل في تفسير الأحلام ، ولا غرو أن يشتاط كحبّة فشار في مقلاة إن لم توافِ الحقيقة تفسيراتها، وتقارب توقعاتها، أمّا هو فقلما عرف الحلم ، كان معلقاً في دوامة سوداء بين اليقظة واللايقظة ، وأمّا الأحلام فيجهل تماماً كنه حياكتها ، وطريقة صناعتها ، بالتحديد يجهل ما معنى حلم ، كيف يبدأ؟ كيف يتوحّش ؟ كيف يخبو؟هو لا يعرف.

كلّ تلك التساؤلات كانت حائرة مثله،معلقة معه في شرنقته السوداء التي تُسمى نوم ، أمّه تقول إنّ من لاهم عنده لا يحلم ، ولكنّه مهموم ، جدته تقول إنّ أصحاب القلوب الطاهرة والنوايا الطيبة ، والأفعال الخيّرة ، لا يحلمون ،وأنّهم يضعون جنوبهم وهم خلو البال من الدنيا؛ لذا لا ترافقهم إلى النوم ، ولكنه آثم القلب ، فاحش الأفعال .

إذن أين حلمه ؟ هو لايملك حلماً، حسبه ذلك الكابوس النهاري الذي يطارده ليل نهار ، يؤرّق جسده إلى ما لانهاية ، ويستنزف طاقة نومه وراحته ، ويُشكِل الأمور عليه تماماً ، لعلّ هذا الكابوس هو السبب الحقيقي في هجر الأحلام له ، فكابوسه هو لعنة حياته ، لعنة الأصدقاء ، ولعنة نفسه الآثمة ، ولعنتها هي بالذات .

بدأت القصة مزاحاً ، ولا شيء غير المزاح والتندّر والبحث عن تسلية ، وانتهت بكابوس أعياه علاجاً بالطبّ والسحر والقرآن ، فرحل كلّ شيء إلا إياه ، فقد بقي ثقيلاً جاثماً على صدره .

اعتاد أن يجلس في ذلك المقهى مع الأصدقاء الذين تعرّف عليهم في رحلة الدراسة ، ثم جمعت العربدة والسكر والفواحش بين ساعاتهم ، وقاربت لقاءاتهم ، وجعلتهم عصبة تتعاطى العهر والسّكر ، وإن كانت تُخلص للمزاح والتندّر ، وتواظب على اللقاء ،وعلى تجاذب أطراف الكلام ، وسرد سِير المغامرات .

لايعرف تماماً ماذا حدث يومها ، لعلّها كانت مزحة، لعلّها كانت حقيقة ، ربما تكون قوة خارقة استحوذت عليه ، وقد لايكون أيّ شيء مما ذكر ، ولكنّه متأكد من أنّ كلماته هي من جلبتها ،أوعلى الأقل هي من وضعتها في طريقه ، كان عندها يصف إحدى تلك الاجساد النسائية التي اعتاد أن يهصرها بشبقٍ شهواني ، كان رُبّ الوصف ، كلماته تنقل الزفرات والخلجات والتنهدات ، ثم تغمر الجسد بقوة عظمى ، سرعان ما تُسرّي عن نفسها بانتعاشة لذيذة ، كان جسداً ككلّ الأجساد النسائية،نسي وجه صاحبته المليحة ، ولكنّه حفظ مفاتنه وأغواره ، وأخذ ينقلها كلمات إلى ذهن الأصدقاء الذي لايضنّ عليهم بالوصف،بل ولا يمانع في إحالة نسائه إليهم في بعض الأوقات؛ فالمتعة حق عام ، والأجساد لها فتنتها الخاصة.

سريعاً ما تطوّر الحديث، بدأ بالتخصيص ، ثم بالتعميم ، ثم

انتهى بالتهكّم ، بلغته الساخرة ، وتصويره المتهكم في وصف المرأة التي لم يذقها بعد ، التي يرغب فيها على سبيل التغيير ، ومن باب التحدّي ، أرادها امرأة تخلو من كلّ جمال أُنثوي ، امرأة معنّاة بشكلها ، موتورة بإثارتها ، يريدها مسخاً ، لكن دون تشوهات ؛ ليثبت للأصدقاء أنّ رجولته المتهيّجة قادرة على استحضار ذاتها حتى مع أقبح نساء الدنيا ، الأصدقاء كانوا مستغرقين بالضحك ، يتندّرون بهول ما يصف ،أمّا هو فكان يوسّط كلماته بحلقات رمادية ينفثها على مهل من أرجيلته ، ثم يسترسل بالوصف ، يريدها امرأة قبيحة، قبيحة جداً .فرغت كلماته ، وما فرغت أمنيته حتى وجدها أمامه تماماً، بالتحديد أمام واجهة المتجر المقابل ، ترقب بفضول آخر صرعات الموضة النسائية ، كانت صيداً لتحدّيه ، مناسبة تماماً لرهانه ، حفزّه الأصدقاء برهانهم ، نحّى خرطوم أرجيلته جانباً ، وانطلق إليها؛ ليحقق رهانه الفاحش .

ساعات أم ليال أم لحظات مرت ؟ لايهم ، المهم أنّ رجولته الطاغية وقسماته المثقلة بشهوتها قد أزاغت قلبها ، وذهبت به شططاً ، وحّررته من سجنه الإجباري ، تحركت فيها أنوثتها المسحوقة ، لم تكن تصدق أنّ أنوثتها الكسيرة قد تستوقف رجلاً مثله ، وكان اللقاء أو كان الفراق ، على يديه كانت أوّل تنهداتها ، التي لم يسمع مثلها ، مزيج من السحر والأزلية ، خليط من الرغبة والنشوة ، حالة خاصة من العشق والتمنّي ، توثّبت رجولته كما شاء لها ، وانتهى لقاء استمر لساعات خالها

لحظات لجمالها ، وكسب الرهان، واختفت غضبى بعد أن عرفت عن رهانه الذي ما رحم قلبها ،وفضح سترها ،وجعلها عرضة للسخرية وللتندّر ، حقدت عليه بمقدار ما أحبّته،وقد أحبّته كثيراً،لذا فقد كرهته كثيراً أيضاً ، زهدت به بمقدار ما اشتهته، غابت وخسرت ، وكسب هو الرهان ، غابت وتركته يشعر بأغرب خسارة في لحظة الكسب ، غابت وتركته حبيس تأوهاتها ، رآها في كلّ مكان، في كلّ ليلة نامت في عظامه وبين أضلعه ، ولكنّها ما ظهرت ، هو من خلقها ، هو من أوجدها ، متأكدٌ هو من أنه من صنعها بكلماته ، كوّنها آية في البشاعة ،رحلت الأنوثة عن كلّ قسماتها ، لكنّها تدفّقت زلالاً في ذاتها وروحها، كسب رهانه ، ثم خسر رجولته للأبد، التي بقيت تنظرها ، ولكنّها لم تحضر .

أصبحت كابوسه اللعين ، يتخيّلها في كلّ مكان ، يلحظها أمام واجهات الحوانيت ، يهرول سريعاً إليها ، ثم تختفي ، بعد أن يكون قد راهن عليها بكلّ أشواقه ، وينام، ولا يحلم ، ويستيقظ ليجد أنّه مازال حبيس كابوس يسمى هي ...

(٢)

كابوسها

تعيش الأحلام ليل نهار ، في الليل ترى نفسها سعادة لاتعرف نهاية ، وفي النهار تتخيّل نفسها نائمة تعيش أحلام يقظة هانئة ، ترى جسدها يكتسي بأنوثة سعيدة تحوّله إلى لحظة سعيدة ، ترى نفسها وسط أسرة هانئة، ومع زوج محبّ ، تحمل حصاد العمر سعادة وهناءة ،هي ملكة الأحلام، وأَمَةُ الحقيقة.

يكفيها أن تقرّر السعادة ، حتى تنالها، تُسدل عينيها ، وتترك نفسها للتمنّي ، فتجد المستحيل حقيقةً، والبعيد قريباً، تنسى أنّها امرأة محبوسة خارج أنوثتها،لم تذق يوماً لحظة أنوثة على يديّ رجل خلا ذلك الكابوس الذي يسيطر عليها، غادرها اهتمام الرجال ، فغادرته ، وإن بقيت تحلم به ، أمّها الانسان الوحيد الذي أشفق على غبنها في أنوثتها ، تمسّد على رأسها ، وتنعى قلة حظّها ، فتفهم ضمناً أنّها تنعى قلة جمالها ، فتبتسم ، ثم تصمت .

كانت الطالبة الألمع في المدرسة ثم في الجامعة ، فقد كانت متميزة في تخصصها ، مبدعة في حقلها ، تحظى باحترام الرجال دون حبّهم ، يسمونها أختهم، في حين يسمون غيرها حبيبة ، يبثونها أحزانهم، في حين يبثون الأخريات أشواقهم ، يتحرّون أوقات نشاطها ، يعملون معها ، ويتحرّون لحظات أنوثة

غيرها ؛ليكونوا لهن.

اعتادت أن تحضن الفراغ في حين يحضن غيرها قلوب حانية عاشقة ،وأذرعاً طامحة، أزهقت العمر ، وبدّدت المدّخر؛ لتساهم في تدريس أخ ، أو لتشارك في بناء بيت لأخت ، أو لتجلب هدية في عيد ميلاد نسيب أو صديق ، ثم تلتصق بالحائط حيث الوحدة ،الكلّ يروي لها حلمه ، ولكن لا أحد يفكر في أن يسمع حلمها الذي سرعان ما مسخ في ذاتها؛ ليصبح كابوساً مضنياً .

بدأ منذ ليلة رحيل والدتها ، التي رحلت بعد معركة غير متكافئة مع المرض تاركة بيتاً كبيراً، تقاسمه الأبناء حتى مداسات الأحذية القديمة ، وبنتاً عانساً لا أحد يُعني نفسه بحرمانها ووحدتها ،فضلاً عن أنّ أحداً لم يفكّر في أين ستقيم بعد أن باعوا البيت الذي بنته بسنين شبابها الضائع، و ولا بفاتورة ضخمة ترهق ميزانية العانس التي تصدّت لها في حين أعلن الكلّ أفلاسه ، فاستنفدت كلّ مدخراتها البقية المتبقية بعد تسديد فواتير الحبّ والأخوة والصداقة ، التي غرمت كثيراً في سبيلها .

كان خبر موت أمّها خبراً مفجعاً، جاء صباحاً قبل لحظة الشروق،لأخوة كانوا في حضون نساءٍ لهن صور باسمة بأثواب بيضاء منضّدة فوق طاولة غرفة المعيشة، والأخوات بكين في حضون رجال أنجبن لهنّ أبناء وبنات، وكن قبل سويعات يشهقن في حضونهن غير مباليات باحتضار امرأة

عجوز تُسمى أمهنّ، أمّا هي فقد انزوت جانباً ، كانت في حضن الحرمان ، أسعدها أن تجفّف أيدٍ حانية دموع الأخوة والأخوات،ولكن ماذا عنها ؟! ذهبت إلى أقرب حمام، وانتحبت طويلاً ، وتكفّلت بتجفيف دموعها .

حرمانها فجّر كابوساً رهيباً، كابوساً لايفرقها لا ليل ولا نهار ، كان مزيجاً من الرغبة والخوف ،تجاوز المتوقّع ، وكسر المقبول ، كان كابوسها فتىً أسمر فارع الطول،يصغرها كثيراً، يناسب فتى صباها، في كلّ سِنَة كانت تراه ، كان جريئاً، له وجود ضبابي ،هي فقط من تراه دون الآخرين ، لا ينتظمه وقت أو قانون ، يمدّ إليها يديه المشتهيتين في أيّ لحظة ، وفي أيّ مكان ،يعرّيها على عجلٍ في لحظات، يفتضّها بعنف لذيذ ،يقبّلها قسراً مع أنّها مستسلمة له، يفوح المكان بأريج أنفاسه ، يبتعد منتشياً منتصراً ، تتنبّه بصعوبة إلى من حولها ، يغيب ليعود مجدداً ،كابوسٌ هو، رغبةٌ جارفة تجتاحها هو، كلّ شيء إلا الحقيقة هو، فهو أبداً ليس حقيقة. تتساءل بصعوبة أهو كابوس ؛لأنّه حقيقة؟ أم أنّه كابوس ؛لأنّه ليس حقيقة ؟ تعيها الإجابة ، تهزّ كتفيها غير بالية ، ومن جديد تستقبل اعتداءه اللذيذ .

(٣)

كابوسهما

هي كابوسه ، هو كابوسها ، هو لايحلم ، هي دائمة الحلم ، هي قبيحة ، هو جميل ،هي تنتظره ، هو يشتهيها ،هي عانس ، هو شاب وسيم ، هي مستلمة ،هو فاحش ، هي وحيدة، هو وحيد ،هو يراها في كلّ الأمكان ، هي تراه في كلّ مكان ،هي تسكن جسده ، هو يسكن لهاثها ، هي لاتعرف أين هو ، هو لا يعرف أين هي ، هي تعرف أنّه موجود ، هو يعرف أنّها موجودة ، كلاهما يدركان أنّهما في كابوس ، ليس عليهما إلا أن يتجاوزاه ، أو أن يتوقفا لحظة؛ ليدركا الحقيقة فيه.

في كلّ صباح تقطع الشارع ،فتصدفه ، أحياناً يصدم كتفها كتفه ، وهي تفتح سيارتها القديمة ، تقف في المرآب إلى جانب سيارته الفارهة وهو يستعد لركوبها ، تعتذر أحياناً ، يبتسم لها أحياناً ، ويمضيان في دربين لا يلتقيان .

يجتمعان في الكثير من مناسك الدنيا ، في الأعراس ، في المآتم ،في حفلات الصيد ، في بعض مراسم العمل ، يحيي أحدهما الآخر ، ثم يقفل مبتعداً ،ليعيش كلّ منهما في كابوسه ، ولأجل كابوسه .

في إضراب عام لبائعي المحروقات ،يصدف أحدهما الآخر في حافلة واحدة ، يجلس أحدهما إلى جانب الآخر ، كتفاهما متأخيان ، وجسداهما ملتصقان ، كلّ منهما يجري نحو كابوسه ،

هي تحلم به ، هو يحلم بها ، ينتفضان ، يبتسمان لبعضهما ابتسامة خجل واعتذار، يقولا بنفس واحد :" لقد كان كابوساً..."

(٤)

كابوسهم

كابوسهم مخيف قلق ، يستنزف لحظاتهم ، ويقلق سكونهم ،يخشون أن تحلم به ، أن تراه في قلبها ، يخشون أن يجسر وينام في قلبها ، كابوسهم يتمثل في أحلامهما ،أحلامها وأحلامه، يريدانهما في كابوس دائم؛ لأّن أنتهاء كابوسهما يعني بدء كابوسهم ، يخشون الحبّ ، يعذبون من يجهر باسمه الملعون ، ينكلون بأجساد من يتعاطونه ، وفي آخر الليل بين الهيجان والسكون ، في غياهب غرفهم المظلمة و في عميق أنفسهم المضطربة، يبكون ويبكون ؛ لأنّ حلمهما كان حلمهم الذي غدا كابوسهم .

(٥)

كابوسي

ليس مصرحٌ لي بالتنديد بالكوابيس ، عصاةٌ ما همست لي في حمأتها :" لا..للكوابيس" . هتفتُ بحماس مرددّة بعدها:" لا للكوابيس ..."

ولكن كابوس عصاة تنهال علي ، فتدكّ عظامي ، وتسحق أمنياتي ظلّ يطاردوني ... مع أنّي عاهدت نفسي إرضاءً لعصا القبيلة على عدم الاستسلام للكوابيس .

(٦)

كابوس ...

.....

.....

.....

.....

!!!!؟؟؟؟.....

عالم البلورات الزجاجية

كان رحيل جدّه هو أوّل رحيل يعرفه، عندما غاب الجدّ سأل عنه، فقيل له : "إنّه قد ذهب إلى العالم الثاني "، ونسي بسبب براءة الطفولة أنّ يسأل ما هو العالم الأول . وعندما مات أبو رجب المرابي سمع عمّه وبعض رجال الحي يقولون بتشفٍ بعيدٍ عن طبيعتهم الطيبة: "ذهب إلى جهنم الحمرا". وعندما ماتت أخته عبلة وهي تضع مولودها السابع في حوش الداية أمّ محمود التي تشبه الغولة،سمعهم يقولون وهم موزعون بين أحزانهم وبين الطفل الذي يبكي الغذاء بحرقة ولوعة :" ذهبت إلى ربها". وتساءل عندها ما حاجة الرب إلى عبلة التي لاتملك من دنياها أكثر من عناء تربية أبنائها ؟! لكن عندما رأى أطفال أخته موزعين في بيوت الأعمام والأخوال أدرك كم كانت عبلة

مهمة!! الله وحده قدّر قيمتها؛ لذا فقد أرسل في طلبها.في المدرسة لم يأخذ دروساً لأسبوع ؛لأنّ معلمهم ذا الكرش المنتفخ كالبالون كان قد اختفى فجأة ، قالت الجدّة له : "إنّ الغولة خطفته" .فاستنتج أنّ الداية أم محمود أرسلته حيث أرسلت أخته عبلة من قبل،ولكن بقي لغز كيفية نقل جسده الثقيل يُلحّ على باله ،إلى أن علم من طلاب المدرسة ومن الآذن "أبو عمر" أنّ المعلّم قد هاجر إلى العالم الجديد وتساءل وقتها : "هل يعني هذا أنّه ما زال محبوساً في العالم القديم ، وهل في في العالم الجديد بشرٌ أم غيلان كما قالت جدته ؟".

عندما كبر عرف أنّ هناك آلاف العوالم والعوالم ، بعضها نعيش فيه، والبعض الآخر يعيش فينا ، أبداً لم يجد عالمه مع أنّه كان يتنفس ويأكل ويشرب وينمو، وهذه أدلة قطعية على أنّه يسير وَفْقَ ناموس عالم ما.

الجارة أمّ حسن الأعور أطلقتْ عليه
اسم عطا الهبيلة؛ لأنّه كان يطيل النظر في البلورات الزجاجية التي يلعب بها أولاد الحارة ، ويصّمم على أنّ فيها عالماً خاصاً به، كانت الدنيا في تلك البلورات رائعة شفّافة ذات انعكاسات لونية رائعة ، دنيا زجاجية تحتمل كلّ الأحلام ، وتتسع لكلّ الأمنيات ، تتسع لجدّه الراحل ، وفيها مكان لأولاد أخته عبلة السبعة الذين ماتت وتركتهم في عهدة ضرّة تسومهم عذاب الكفرة ، وفيها طعام وشراب مثل الذي يراه في التلفاز، وملابس جديدة في العيد ، وبيت له نوافذ واسعة ، وحديقة خضراء ، بل إنّ هذه الدنيا

متسعة حتى أنّها قد تكفي لسدّ جشع أبي رجب المرابي ، ولسدّ جوع أولاد جارتهم الأيتام ، الذين مات أحدهم العام المنصرم بسبب سوء التغذية .

لقد عشق العالم الزجاجي في هذه البلورات ، كان يجمعها باهتمام ، يغسلها ويلمّعها ، ويجعل بعضها في جيبه ليداعبها بيده ، وليتأمّل بعضها كلما سنحتْ الفرصة لذلك ، ويسمى البلورة الخضراء العالم الزجاجي الأخضر ،والبلورة الزرقاء العالم الزجاجي الأزرق ، ...

عندما نجح في الثانوية العامة ،وحصل على معدل ٩٠,٥ % قالت له أمّ حسن الأعور بحسد وغِلّ:" والله يا عطا الأهبل ونجحت ..!!"يومها بصق في وجهها، وهرب بعيداً ، واختلى لساعات ببلوراته الزجاجية ،عندها رأى في عوالمها جامعة يدرس فيها ويحقق النجاح ، ورأى نفسه بقميص أزرق وبنطال كحلي جديد مثل الذي اشتراه عمّه في يوم خطبته ، وتخيّل نفسه طبيباً يحترمه الناس ، ويساعد الفقراء منهم.

ولكن عالمه الجميل بقي حبيس بلوراته الزجاجية، فهو لم يستطيع أنّ يدخل الجامعة ؛لأنّه لايملك شروى نقير ،فضلاً عن أقساط الدراسة الجامعية. وبدل أنّ يصبح طبيباً أصبح فتى الفرن الذي ينقل الخبز على دراجته الهوائية إلى بيوت الأغنياء الذين يسمّون أبناء الذوات والعزّ ، وكان كلما سمع هذه التسمية تساءل في نفسه بنقمة : "ماذا ترانا نسمى عندهم ؟ لعلّنا في نظرهم أولاد الكلب " . ومن جديد عاد عطا إلى عالمه

الزجاجي حيث يرى نفسه، وقد حصل على شاحنة نقل مستعملة، لها مقاعد جلدية قديمة، ينقل بها الخبز ، بدل أنّ ينقله على دراجته الهوائية التي قطعت نفسه ،وقوّست ظهره.

اعتاد في كلّ يوم أنّ يمر من شارع "..." حيث الطريق إلى عالم الأغنياء الذي يفصله عن عالم الفقراء ، كان الشارع كبيراً ونظيفاً ومشجّراً كما هي الشوارع في عالم البلورات ازجاجية ، ولكنّه كان شارعاً رتيباً مملاً إلى أن أُفتتح فيه ذلك المتجر الفاره ، لم يدخله أبداً ،" فكلّ أهله لو بِيعوا ما بيجيبوا حق قطعة من معروضاته "كما قال له صاحب المخبز ، لكن واجهة المتجر كان لها سحرٌ خاصٌ ووقعٌ عظيمٌ على نفسه الزجاجية، كان للمتجر لافتة وردية تضاء بأنوار صغيرة لتشكّل اسم المتجر، وهو :" عالم روزا" واجهة المتجر كانتْ زجاجية لها خلفية فضية لامعة يتوسّطها تمثال لامرأة طويلة شقراء وأحياناً كان يُغيّر شعرها المستعار فتصبح سمراء ، لكن عينيها كانتا دائماً خضراوين صافيتين مثل عيني منال بنت الجيران التي أحبّها منذ زمن طويل ،ولكنّ الفقر ألجم لسانه أمامها، أسمى ذلك التمثال باسم روزا ، فلا بدّ أنّ هذا المكان هو عالمها وَفْق ما هو مكتوب على واجهة المتجر .

أدمن على المرور في كلّ صباح من أمام المتجر؛ليحدّق طويلاً في امرأته البلاستيكية الحسناء التي تتناوب على أجمل أثواب الموضة ، تعرّف إليها ، وحدثها طويلاً ،حدّثها عن عالمه الترابي فكرهته ،وحمدت الله على أنّها لا تعيش فيه، حدّثته عن

عالمها ، فأحبّه ،هو على الأقل أفضل من العوالم التي ألفها ،وتمنّى لو أنّه يدلف إليه ،ولكنّه كان يجهل السبيل إلى ذلك كما كانتْ تجهله امرأته البلاستيكية هي الأخرى.في ما بعد عشق حسناءه ، وطلب أنّ يتزوجها ،فوافقتْ ، بل كادت تخرج عالمها ، وتغادر منصة العرض في واجهة المتجر لتقبّله.

دار نقاش بينهما لأيام طويلة حول من منهما سيغادر عالمه ،وينزلق في عالم الآخر ليكونا معاً ، كثيراً ما كان صاحب المتجر أو أحد فتيانه يقطعون الحديث بينهما، ويطردونه من واجهة المتجر ، لكن أخيراً كان القرار ، لقد اتفقا على أنّ يدلف إلى عالمها الزجاجي الساحر ، كان واثقا منً أنّه عندما يلمسها سيتحوّل جسدها اللدن إلى مادة حية ، وينعمان بضوء عالمها ، ويعيشان معاً في وارف ألوانه ،ولكنّه بقي غير متأكّد من الطريق التي يتوجب عليه أن يسلكها حتى يدلف إلى ذلك العالم، نظر شمالاً ويميناً ، شدّ بيديه على مقود الدراجة الهوائية المهترئة ، تنفّس الصعداء ، ثم انطلق سريعاً بدراجته الهوائية نحو الواجهة الزجاجية ، وفي أسرع من لمح البصر دلف إلى ذلك العالم،شعر ببعض الألم العظيم،وخال أنّ مزِقاً من جسده بقيت عالقة خارج العالم الزجاجي،وجد امرأته في انتظاره ،بابتسامها العميقة نسي الآمه ، عالم نوراني جميل هو عالمها ، غلب عليه اللون الأحمر ، عالم يشبه العالم الزجاجي الأحمر ، وغاب مع فتاة عالمه الزجاجي..

في المساء أُودع جسد عطا في قبر خفيض إلى جانب سور

مقبرة القرية، كان حول قبره حفنة من الرجال ، وشيخ الحارة ، عجبوا من تلك الابتسامة العجيبة التي كانت ترتسم على محياه وهم يدفنونه، قالوا:" إنّ مسّاً من الجنون قد دفعه إلى اختراق واجهة المحل الزجاجية "، وقيل:"إنّ ما حدث ليس إلا حادثاً مؤسفاً ". الجارة أم حسن الأعور قالت:" الله يرحمه، عاش أهبل ومات أهبل". الكلّ أجمع على أنّه الآن في الطريق إلى العالم الآخر، لكنّهم لم يعلموا أنّه قد انزلق بعد عناء في عالم الأحلام الزجاجية.

أوديسيوس مرّةً أخرى. . .

لكلِّ موجودٍ أسطورة، هكذا تقول الحكاية ، ولأنّ الحكاية تقرّ بحقيقة وجود الأساطير ، كانت أسطورتها، وكانت أسطورة كلّ امرأةٍ منذ كانت الخليقة. كانت تقف على رجم الحجارة الملساء ذات الأصباغ الملوّنة تنتظر غائباً لم يغب، وحاضراً لم يكن، وبعيداً لعلّه لن يؤوب، " ليته يأتي" حدّثت نفسها. "لعلّه يأتي" أجاب إله البحر بتعاطفٍ كافٍ ليغرق خضرة شعره الذّي يحيط بحار الدّنيا بزرقةٍ أبديّة.

كانت هنا منذ أشهرٍ طويلة ، بالتّحديد منذ أن جاء ذلك الذّي أضاء حياتها، وحرّك أمواج البحر الممتدّ أمامها منذ الأزل، جاء من البعيد، يحمل آلاف القصص التّي لا تعنيها، هو فقط من يعنيها، تقول الأسطورة إنّها خُلقتْ لكي تنتظره . أيّ

أسطورةٍ تقول ذلك؟هي لا تعرف، لعلّها أسطورة الانتظار التّي حاكتها باشتياق الدّنيا، جاء ملاّحاً طموحاً على مركب أحد السوّاح الذّين يجيئون من أرض الثّلج وبلّورات الماء والصّقيع ؛ليتمدّدوا عراةً أو شبه عراةٍ على شواطئ الجربة لؤلؤة السّاحل التّونسيّ، ولؤلؤة الأساطير الإغريقيّة.

قابلها أوّل مرةٍ في حومة السّوق التّي تقع في قلب الجزيرة في محلّ صنع الفخّار الذّي تشتهر جزيرة الجربة به، تأمّل طويلاً ما تصنع يداها، ثمّ تقدّم إليها، وسألها أن تساعده في انتقاء هديّةٍ صلصاليّةٍ لامرأةٍ يعشقها بجنونٍ موجودةٍ في ميناءٍ ما من موانئ الدّنيا، دون تردّد اختارتْ له تمثالاً صلصاليّاً صغيراً لإله البحر بوسيدون، نقدها ثمنه دون فصال، وطلب أن تضعه في علبةٍ صدفيّةٍ مناسبة، ثمّ أهداه لها بكلّ حبّ وسعادة وحماسة من حمله من آخر الدّنيا، من يومها لم تقف على تلّة الانتظار، ولم تهمس لبوسيدون بحميميّة الانتظار؛ لأنّه جاء، جاء على شكل أسطورة من البحر.

ولكن لجج البحر الآثمة عادت وابتلعته من جديد، وأفل من حيث أتى، وبقي البحر يصبّرها، وبقيت تسمع صوت هديره غارقاً في صدفاته التّي رتّبتها لآلاف المرّات على شاطئه الرّمليّ السّاخن، كلّ صدفةٍ حدّثتها بذكرى امرأةٍ وقفت تنتظر غائباً اسمه حبيب، أصدافٌ كانت تحمل ذكرى لقاءاتٍ سعيدة، وكثيرٌ منها كان يحمل صوت البحر وهو يُغرق دموع نساءٍ ابتلعهنّ الانتظار، ولفظ البحر جيفهنّ إكراماً لذكرى التلة ، شعرت

بأنّها في لحظةٍ ما عمرها

عقود طويلة وقفت تنتظر حبيباً تونسيّاً أسمر قال للاحتلال:لا. والتحق بالثّوار الذّين ابتلعتهم الصّحراء، ولم يعد. كم راودت إله البحر لينقل جزيرتها إلى قلب الصّحراء لترى حبيبها!! ولكن ذلك لم يحدث، وبقي الإله القاسي متمسّكاً بحدود مملكته المائيّة العظيمة، مع أنّه وُلد أصلاً في بحيرة تريتون (شطّ الجريد) في صحراء تونس، التّي كان ماؤها المالح الرحم الأوّل الذي احتواه .

وطال الانتظار، طال لقرونٍ طويلة خلت في الماضي ، رأت نفسها عبرهاعربيّة مسلمة من أهالي الجزيرة تلبس ثوباً قرمزيّاً، تنتظر زوجاً اجتذبته الفتوحات الإسلاميّة، وأدهشته فكرة الأرض الجديدة، إلى درجةٍ نسي فيها دهشة اللّحظة مع المرأة، وسحر العشق، واختفى، وما اختفت التّلّة ولا الزّوجة، ولا توقّف الانتظار ،الانتظار الذّي عمره آلاف السّنوات، بالتّحديد عمره بعمر أسطورةٍ فنيقيّةٍ قديمة، كان اسم الجزيرة إذّاك (مينكس) ،أي الأرض القليلة المياه، ولكنّها كانت مرفأً آمناً لسفن الفنيقيّين، كانت بائعة هوى، تبيع جسدها لكلِّ بحّارٍ متعرّقٍ أضناه الحرمان، وعرّته الرّغبة، وفي ساعة رّحيل السّفن، كانت تحزن بشدّة، تحزن؛ لأنّها ما زالت تنتظر، تنتظر قادماً لم يأتِ بعد، وتتكبّد في انتظاره ألم وداع رجال الدّنيا أجمعين.

تتذكّر أنّها سعدت مرّةً واحدةً لا غير بلقائه في أسطورةٍ ما، لعلّها كانت أسطورة إغريقية، إنّه أمرٌ مؤكّد أنّها كانت إغريقيّة،

تقول تلك الأسطورة إنّ إله الصّواعق زِفس غضب بشدّةٍ على أوديسيوس بطل الإلياذة ؛لأنّه نهب مدينة أزماروس، ولمّا أبحر النّاجون أرسل عليهم عاصفةً لتعيقهم، وبعد تسعة أيّامٍ بلغوا جزيرة الجربة، التّي كانت تدعى آنذاك بجزيرة أكلة اللّوتس، واللّوتس فاكهةٌ عجيبة، من أكل منها نسي بيته وبلاده وكلّ شيءٍ يحبّه، ولا يطلب أكثر من أن يظلّ حالماً بين الجداول والشّلالات والأشجار المزهرة إلى الأبد، بعض البحّارة أكلوا من هذه النّبتة، ورغبوا فعلاً عن الإبحار، إلاّ أنّ ذلك الأشقر البرونزيّ ذا الجسد المتين، والنّظرة القاسية، أجبرهم على الإبحار بعد أن قيّدهم إلى صواري سفينته، رحل يحمل رجالاً ينوحون على ما تركوه من هناء، أمّا هي فقد قيّد قلبها إلى صاريّة سفينةٍ إلى جانب أولئك البحّارة المهووسين بجزيرتها الأسطورية.

تمنّت أوديسيوس بكلّ ما أوتيت من قوّةٍ على التّمنّي، أسفت لأنّه لم يذق ثمار جزيرتها، ليكون إلى جانبها إلى الأبد في دنيا الأحلام.انتظرته لمدّة عامٍ ،انتظرته لألف عامٍ انتظرته، لبضعة آلاف عامٍ انتظرته، وجاء، كان شابّاً جميلاً لم تخط السّنون خطّاً على وجهه الذّي لوّحت الشّمس نضرته الفاتحة، ولكنّه غاب من جديد.

نظرت إلى البحر الذّي يأكل انتظارها الأسطوريّ منذ ألف عامٍ، قالت له بحنقٍ ذليل:

- "إلى متى يا بوسيدون نلعب سويّاً لعبة الانتظار إلى متى ؟ إلى متى؟"

سؤالها أقلق مرجان البحر، ووعّر انزلاق أمواجه، وثوّر صمت أصدافه، تنهّد بوسيدون، وزفر زفرةً اضطربت لها أمواج البحر، واتّكأ بتعبٍ مائيٍّ غضٍّ على حربته الثّلاثيّة وقال لها: "ولكنّكِ يا عزيزتي ضعيفة، كلّما أتيكِ بحبيب، أسلمتيه للسّفر، وعدت تعتصرين قلبكِ وسنينكِ بالانتظار".

سألته بحيرة "وما في يديّ أن أفعل؟" ها ؟ قل لي يا بوسيدون العزيز، ماذا في يدي أن أفعل؟" ردّ بوسيدون بصوتٍ رخيمٍ عميق: "احتكريه . . . امنعيه من السّفر . . . ابتلعيه إن اقتضت الحاجة . . ."

قال بشكّ: "وهل ستقبل ربّات القدر بهذا؟"

قهقه بوسيدون وقال: "عليكِ أن تصنعي قدركِ مع الحبِّ بنفسك".

وغرقت ضحكات بوسيدون في البحر ،ومن جديد عاد أوديسيوس، عاد على هيئة الملاّح الذّي أهداها التّمثال الصّلصاليّ الصّغير، عاد كلاهما، كان أوديسيوس يحمل ثأراً من الانتظار، وعاد الملاّح يحمل اعتذاراً عمليّاً من القدر ، حضنت أوديسيوس العائد في جسد الملاّح الشّابّ، الذّي ضمّها على حين غفلة، يداه القويّتان رفعتا جسدها الصّغير عن الأرض، رقص حذاؤها في الهواء قليلاً، ثمّ تملّص وانزلق أرضاً، وبقيت هي في أحضانه.

حدّثته عن تاريخٍ من الانتظار، حدّثها عن تاريخٍ من الموانئ

والنّساء والسّفر والحرمان، حدّثته عن الماضي، فحدّثها عن المستقبل، حدّثته عن المستقبل، فأعاد ذكر الماضي، لمئة عامٍ بقيا يتحدّثان على التّلّة، لم ترد أن تفارقه ولو للحظة، ضمر جسدهما من طول السّهر والتّعب والجوع ،فقد كانا هبةً لسنين طويلة للحديث والحديث والحديث، خشيت أن تنام، فيأكل ويرتاح ويسافر من جديد، ومع أوّل لحظة استسلامٍ يقدّمها لسلطان النّوم، شمّرت عن ذراعيها المخمليّين، وبحربةٍ مائيّةٍ كبيرةٍ قطّعته إرباً، وبشوقٍ كبير ازدردت لحمه الفتيّ، وشبعت، لأوّل مرّةٍ في تاريخ الانتظار الأنثويّ البائس شعرت بالشّبع، مسّدت على بطنها، فأحسّت بعظام أوديسيوس الفتيّة في حمأة معدتها، ارتاحت ؛لأنّها لن تستيقظ أبداً بعد الآن لتقف من جديد على تلّة الانتظار، واستسلمت للنّوم . . . نامت إلى ما لا نهاية . . . ولكنّ التّلّة من جديد ضجّتْ بامرأةٍ أخرى ما تنتظر، وبقي بوسيدون أسير انتظار شعوبٍ من النِّساء .

أسطورة (١): الانتظار أسطورة مقدّسة.

أسطورة (٢): بوسيدون أيضاً كان قد احترف الانتظار.

أسطورة (٣): ليس هناك أساطير مقدّسة.

أسطورة (٤): أوديسيوس لم يكن أسطورة بل كان حقيقة.

حكاية شجرة

في أرض نصفها ثلج ونصفها الآخر وهج ، في أرض نصفها في الشمال ، ونصفها في الجنوب ، في أرض نصفها في الماضي ، ونصفها الآخر في الحاضر ، في أرض نصفها هناء، ونصفها الآخر تعاسة، هناك في أرض الجفاف حيث ملتقى البحرين ، في أرض تسمى قلب، نبتت شجرةٌ وحيدةٌ ، اسمها شجرة (التوأمين) ؛ سميت بذلك لأنّ لا شجرة تنمو وحيدةً أبداً ، بل تنمو من انفلاق بذرة نادرة ، تنبتُ شجرتان من نفس النوع ،ونفس الطول، ونفس السن ، لم تسمع شجرتنا من الشجرات الأمهات أنّ شجرة توأمين نمت من قبل وحيدة ، فهي تعلم أنّ أي شجرة تبزغ وحيدة لاتُكتب لها الحياة ، وسرعان ماتجفّ عروقها ،وتذوي أغصانها ، وتسقط أوراقها اليافعة ،

وتسلم نفسها حطباً ميتاً يهوي على الأرض .

لكنّها نمت وحيدة ، هكذا كنبات شيطاني ، تكوّرت ومزّقت رحم الأرض ، ونبتت برعماً أخضر، ثم استطالت واستدارات في أيام صيفية ممطرة ، وغدت شجرةً صغيرةً وحيدةً ، كانت فرداً في حين كانت الأشجار توائم متجاورة متفرعةً من بذرة واحدة .

شعرت باستحياء خاص ، فقد شعرت أنّها سيئة أو شريرة ، لا تستحق شجرة رفيقة ،ولذلك نمت وحيدة ثم ساورها شعور العجز ، إذ إنّها أطلت من بذرة عوان بين العقم وبين الأجداب ، فكانت وليدها الوحيد، وعطائها الأخير في زمن الشيخوخة ، ثم استقرّ في وجدانها أنّ الحظ جافها إذ حرمها من رفيقة تآخي زمانها ، وتكون نصفها ، وتصبح زوجةً لها ، فقد كانت شجرةً ذكراً وحيدةً .

الأشجار العجوزة استعبرت حزناً على الشجرة الوحيدة ، وهشّت بأغصانها تعبيراً عن مساندتها ،وحثّت الأشجار اليافعة على مساندة الشجرة الوحيدة، وعلى تقديم كلّ حبّ لها ، لكن الأشجار اليافعة كانت سعيدة بتوائمها إلى حدّ أنها لم تستطع أن تتوقف إجلالاً لأحزان الشجرة الوحيدة ، في حين اكتفت أشجار أخرى بموقف الحياد ، فلا هي آمالت أغصانها بعطف نحو الشجرة الوحيدة ، ولا هي كفّت عن لفّ أغصانها بحنو على أغصان توائمها ، فهيّجت بسلوكها وجد الشجرة الوحيدة وأحزانها.

كلّ أشجار الغابة كانت من صنف شجرة التوأمين ،لذا فقد كان منظر الاشجار المتعانقة، التي تنمو زوجياً من جذر واحد ، وتنطلق من ساقين مستقلين ولكن متجاورين ، بأغصان متجاورة ،وبفروع متداخلة ،وبأوراق غضة من نفس الحجم واللون ، وبهامات خضراء يافعة وبطول واحد ، منظراً وجودياً مألوفاً ومتكرراً في الغابة لا يُستثنى منه إلا شجرة وحيدة تنمو على هون ، تمتدّ أغصانها بعشوائية تفيض خضرة وقوة ، وإن علت بعض أوراق صُفرةٌ تدّل على طارئ مرض أو قُرب عهدٍ بشفاء .

ولأنّها الشجرة الوحيدة التي تحدّت وحدتها ، وتغلّبت على قانون نوعها، وصمدت أمام وجع الألفة التي تعوزها، فقد أطلقت الشجرات عليها اسم أخضر الأوّل ، ثم اختصرته من باب الترخيم باسم (إيخو)،الذي ما انفكّ يدرس حالته ، ويأصّل لوجوده ، إلى أن وصل إلى نتائج مذهلة ، فقد عرف أنّ تاريخ الأشجار في حقيقته تاريخ أحادي لا ثنائي، فالأحادية هي الأصل ، والثنائية هي الطارئ ، فكلّ أشجار الدنيا باستثناء فصيلة نوعه نادرة النوع اعتماداً على ماوصل إليه بعد بحث وتقصٍ، توُلد وتنمو وتعيش أحادية ، وإن كانت تعيش ضمن جماعات تُسمى غابات ، أو عُصب تُسمى حدائق وبساتين ، أمّا حالة نوعه من الأشجار فهي حالة غريبة ، إذ تنبت كلّ شجرتين معاً، وتتجاوران طوال حياتهما، وتموتان كذلك معاً،في اللحظة نفسها ،وللسبب نفسه.

هذا الاكتشاف أسعد إيخو الذي عرف أنّه نموذج عن الأصل ، فهو بمعنى أو بآخر حالة أولى للوجود ، وهذا اليقين قاده إلى أسئلة شتى ، أولاها ما سبب انحراف أشجار التوأمين عن الأصل ؟ بعبارة أدّق ما سبب جنوح أشجار نوعه عن القاعدة ؟ وما سبب ظهور الثانئية؟ وهل هذه الثانئية تخدم النوع أم تسيء إليه ؟وهذا السؤال يقود بالضرورة إلى سؤال آخر ، وهو سؤال أخطر ، يقف عند سبب وملابسات هذه الثنائية ، أتراها كانت حاجة ماسة دعت إلى هذا التدبير ، أم هي رغبة طارئة جامحة ؟ أم هي طفرة أو حالة مرضية طغت على الكلّ ،وأعيت التدبير والعلاج ؟ فتفشّت ،وأصبحت هي القاعدة في حين أصبحت القاعدة هي الاستثناء؟ إجابة سؤال كهذا ستبني عليها نظرية خطيرة ، فهو إمّا أن يكون حالة مثال للشجرة السليمة وسط سائد مريض؟ أي أنّه انتصار مثال الشجرة السليمة وسط سائد مريض؟

أي أنّه انتصار الصحة على المرض ؟ أو أنّه حالة مرض في وسط سليم ؟ وبذا يرى أنّه لا يستحق إلا الموت ، أو الرثاء والتقبّل على مضض في أحسن التوقعات ؟

وأيّاً كانت النتيجة فهو يرى نفسه مسوقاً ومدفوعاً نحو تساؤلٍ كبيرٍ ؟ ألا وهو لماذا هو بالذات ؟ لماذا كُتبت عليه دون أقرانه الوحدة ؟وماذا سيكون نصيبه من هذا التأبّد المقيت ؟

أسئلته كانت كثيرة ، ولكن الإجابات كانت شبه معدومة ،فاكتفى لذلك بحفيف الأشجار العجوزة التي تحنو عليه ، وهي

تتأبط أغصان توائمها في نسقٍ تكاملي فريد .

كانت الشجرة إيخو تحلم شأنها في ذلك شأن أيّ شجرة ذكر في أن يكون لها زوجة تقاسمها أعباء البرد ، وسعادة النسيم ، وتجني معها فرحة ثمارهما ، وتنعم وإياها باحتضان أعشاش طيور الوروار التي طفقت تسكن أغصانها على استحياء وبناءً على رغبتها ، إذ قدّرت طيور الوروار أنّ الشجرة إيخو قد تكون في وحدة وحزن يمنعانها من استقبال أيّ ضيف ، ولكن الشجرة خيبت توقعاتها إذ كانت مأخوذة بقضية الأنس وجماليات التلاقي .

وطال العمر ، وطالت الوحدة ،واعتادت الشجرة إيخو أن تمضي وقتها في مراقبة انثناءات وتحلقات الأشجار التوائم حول توائمها ، كانت تجد في ذلك متعة لا تضاهيها أيّ متعة ،وغدت شجرة شابة في السبعين من عمرها ، بعض الأشجار الأمهات ماتت ، ودّعتها دامعة ،لكنّ الأشجار التوائم الحديثة شغلت مكانها ، واستكملت مسيرة حبّها . أحسّت الشجرة الوحيدة أنّ حياتها ستتوقف عند المنتصف ، وأنّ شبابها يُقصف مبكراً، فقد بدأت تشعر بألم في خشبها ، وبحركة غريبة في جذرها ، وقدّرت أنّ الموت قادم ؛ فالشجرة التي تصاب في جذرها عليها أن تفكّر في أمنياتها الأخيرة .

بدأت تنتظر لحظة الموت التي بدا انتظارها على رصيف الوحدة بشعاً ومقلقاً ، وجاءت اللحظة ، أو كادت ،هكذا قدّرت الشجرة من الآلام الرهيبة التي هاجمت جذرها ، فشعرت أنّه

ينفصم ويتمزّق ، كادت تستلم لآخر أنفاسها ، لكنّ الحياة أعطتها مفاجأة أسعدت شبابها الطويل وأثارت وحدتها ، هي لم تكن تعاني سكرات الموت كما خمّنت، بل كانت نفساً تتساقط أنفساً ، وثمرة تنشق عن شجرة ، فبعد سنين من الجدب والقحط تحركت بذرتها الأم ،

واحتضنت شجرة أخرى ،ومن ثم شرعت تدفعها من رحمها باتجاه السماء ، كانت شجرة أنثى ، بدت طامحة كغاربٍ صغيرٍ ، أوراقها الصغيرة مثل نجمات في السماء ، أغصانها الغضة الرقيقة أحيت قلب أخضر ، الذي حصل على شجرته التوأم بفارق زمني جبّار ، ببزوغ شجرته التوأم إلى الحياة نسي كلّ شكوكه وتساؤلاته ، وسلا كلّ أحزانه .

امتدّت فروع أخضر لتشمل فروع الشجرة الوليدة ، مراقبة جذعها الجميل وأوراقها الصغيرة ، كانت متعته الكبيرة ،وبقربها ذاق معنى جمال التوأمة ، وغدا يؤرّخ لزمن جديد من السعادة والتوحّد مع أنثاه الشجرية المثيرة ، أخيراً غدت له حكاية حبّ مثل كلّ حكايا الأشجار ، أخيراً خطّ القدر قصته مع أجمل شجيرات الغابة، مع شجيرته التوأم التي انتظرها بمقدار سنين عمره ، وناجاها دون أن يظنّ أنّ القدر سيجود عليه بلقياها ، فقد كان بزوغها من رحم البذرة التي انشقّت عنه صدفة سعيدة ماخال أنّه سيلقاها ، لذا كان احتفاؤه بوجودها احتفاءً ماله مثيل ، ينزاح بأغصانه يسرة أو يمنة ؛ليسمح للنسيم بمداعبة أوراقها ،ينحني على قمتها ، فيطوقها بأغصانه ؛ليمنع أشعة الشمس من إذبال أوراقها ،

ويفصّل امتصاصه للغذاء على قدر الكفاف ؛ ليسمح لجذورها بامتصاص الغذاء حدّ التخمة ، متعة العطاء كانت متعة لامثيل لها ، وهو على أتمّ الاستعداد للمزيد منها .إلا أنّ المنشار كان لهما بالمرصاد ، شكلهما الشاذ دون أشجار الغابة أغرى النجّار ببترهما بمنشاره الكهربائي، فصلهما دون رحمة عن الجذع ، فهويا على الأرض.

حبّهما كان آخر ما يحملان ،فضلاً عن ذكرى ألم لم يرحل بعد أن استوطن في مساماتهما ، ومنشار آثم فرّقهما للأبد يستلقي براحة إلى جانبهما.هي كانت لاتزال شجرة غِره لاتعرف شيئاً عن تاريخ ملاحم الأشجار وعن مذابحها ، أمّا هو فكان يعرف أن مصيرهما حزين أسود ، توقّع أن يطعم وإياها لنيران مدفأة ما ، كان يستطيع أن يتحمل فكره موته ، أمّا فكرة تفحّمها في النار ، فكانت فكرة تزيد من ألم أغصانه المفصودة بالقدوم عن جسده ، وما كان في اليد حيلة ، سوى انتظار لحظة الافتراق والتفحم ، قُدّما خشباً خاماً لرجلٍ مسنٍ يستعين بنظّارات سميكة ، تأمّل خشبهما طويلاً ، طرق على أسطحهما ، ومسدّ على لحائهما ، ثم شرع يُعمل آلته الدقيقة فيهما، أمضى أياماً يحفر في خشبهما ، ويطوي أسطحهما، ثم ثبّت أوتاراً على الخشبتين ، فغدا أخضر كماناً حزيناً ، وغدت شجرته الصغيرة قوساً شُدّ إلى جنبيه شعرات خيل رقيقة بتراصٍ شديد ، حدّق الرجل العجوز فيهما ، قلبّهما بحنو ،قربهما من صدره ، أسند الكمان إلى كتفه ، وأجرى القوس عليه ، فانطلقت

الأنغام شجية حزينة ، تناسب أحزان عازف الكمان ، وتحاكي آلام الشجرتين التوأمين .

كان عازفاً حزيناً ، أفنى الكثير من ساعاته في صياغة أحزانه أنغاماً واهتزازات أوتار ،ألِفت الشجرتان أنامله العجوزة التي تداعبهما بكلّ عطف ، حفظتا قسماته العجوزة التي خطّ القدر فيها ساعاته ودقائقه .

لليالٍ عزف العجوز على كمانه بواسطة قوسه ، كان مصمماً على أن يؤلّف قطعة موسيقية حزينة ، الكمان العاشق ، والقوس المتيمة أضفيا من أحزانهما وعزيفهما الشيء الكثيرعلى أنغامه ،فبدت قطعته عبقرية نادرة الوجود قادرة على محاكاة الطبيعة ومناجاة كائناتها .

في الصباح الذي لم ينتظره الكمان أو القوس ، وإن انتظره العجوز بفارغ الصبر، استعدّ العجوز للخروج، ارتدى ملابس العزف الرسمية ، المغلّفة بحرص ، ومعلّقة منذ زمن في الخزانة القديمة التي حفر في خشبها المتين كلمة أحبّك ، وانطلق إلى المسشفى الذي هجر زيارته زمناً ، حيث تنتظره الزوجة الحبيبة ، التي هاجمها مرض الزهايمر منذ زمن ،فأكل ذاكرتها بشهية آثمة، ومسح ماضيها وحاضرها إلا حبّها للموسيقى ، فقد بقي متجدّداً قابعاً في نفسها ، أراد الزوج أن يهديها معزوفة ليس لها مثيل ، أضنى نفسه في صنع الكمان والقوس ، واعتصر كلّ موهبته في قطعة موسيقية أخّاذة ،طار لعزفها على أذنيّ من أحبّ ،لكنّها كانت قد رحلت ،وسبقته إلى

الموت ، تبعها إلى رمْسِها مهزوماً محطماً ،وقف بين يديها بإجلال ، ثم عزف على الحجارة التي احتوت جسدها الهزيل معزوفته الموسيقية ، عزفها لعشرات الساعات ، حتى كَلّ جسده ، وتيبست عضلاته ، شعر بتعبٍ شديد ، أسند الكمان والوتر إلى قبرها ، انحنى إجلالاً وإكراماً لمن تسكن القبر ،ثم ولّى متبعداً لا يلوي على شيء .

الكمان الحزين اشتاق إلى لمس قوسه الأثير ، حاول أن يدنو منه بحركات انتحارية متهورة ، انزلق وإيّاه على الأرض إلى جانب الرِمْس ، سمعا صوت نزيلته العجوز تدندن مترنمة بالأنغام التي سمعتها منذ وهلة،تمطيا احتراماً لذائقتيها العظيمة ، واستسلما للشمس المحرقة ، ثم انغرسا في الأرض التي أنشبا أظافرهما فيها، ثم ضربا بجذورها في العمق ، امتدا حياة تشمل جسديهما، وتغزو مساماتهما،أزهرا زهوراً نادرة ، كست جسدهما الخشبي ، أسماها الناس أزهار الحب التي توّجت حكاية شجرة عاشقة ، فالأشجار مثل البشر تملك هي الأخرى حكاياتٍ وسيراً وملاحم وآمالاً وانكسارات ونهايات ، وتبقى مقيمة على عشقها،مخلصة لذكراه...

حادث مؤسف سعيد جدّاً

لا أحد يستطيع أن يلومني على ما فعلتْ، فأيُّ شابٍّ يملك ذرّة نخوةٍ ورجولةٍ كان سيفعل ما فعلتْ، الكلُّ تفهّم موقفي، حتّى الشّابّ نفسه صفت نفسه لي في ما بعد، والقضاء كان رحيماً بي كذلك، إذ خفّف الحكم عنّي إلى حدِّ دفع غرامةٍ زهيدةٍ لا قيمة لها ،لا أذكر حتّى أنّني دفعتها،وانتهت المشكلة بوصفي شاب دمه حار، ولا يحتمل أن يُحاف جانبه، وكثيراً ما وقف لي المارّة والجالسون في الحيّ ليلقوا التّحيّة عليّ على اعتبار أنّي بطلٌ عصريّ، يلبس بذلةً أنيقةً، ويضع نظّاراتٍ طبية، ولكنّه عند اللّزوم ابن أصل، دمه يغلي في مرجل الشّرف.

ولكنّ المشكلة أنّي لم أتوقّف أبداً عن لوم نفسي،بل أنّي لم أسامحها أبداً مع أنّ صاحب العاهة نفسه قد سامحني على ما

يبدو، واكتفى بالانزواء تعبيراً عن حزنه، ورضوخاً لعاهته، لكنّي بقيت أحتقر نفسي وأنعتها (بالبلطجة) ،في حين نعتني الكلّ بالرّجولة والمروءة.

الرّواتب المنخفضة والمواصلات ومديري المرتشي هم السّبب في عاهة مصطفى، كما أنّهم السّبب كذلك في الأزمةِ النّفسيّة التّي أعيشها الآن، فلو لم تكن الرّواتب منخفضةً لما اضطررتُ لأخذ مواصلات درجة ثالثة، لأصل بها متأخّراً إلى عملي منقوعاً بعرقي ،منتوفاً كدجاجٍ في وعاء ماءٍ ساخن بسبب الزّحمة وتدافع الرّاكبين والجالسين في الحافلة وتدانيهم، لأجد مديري المرتشي بعد كلّ هذا العناء قد خصم عليّ راتب اليوم، وعندما أحتجّ على ظلمه، يحوّلني إلى مجلس تأديبٍ ليخصم عشرة أيّامٍ أُخر من راتبي المنكمش حدّ التّلاشي، ومن ثم يوجّه لي إنذاراً أول، وبذا أدفع أنا الموظّف البسيط ثمن كلّ خطايا الفاسدين، وأصبح العدوّ الأوّل للشّعب والدّولة ولمشاريعهما الوطنيّة الموقّرة التّي لا يمكن أن يندسّ تحت لوائها أيُّ مرتشٍ أو انتهازي !!!

لولا كلّ ما ذكرت لما دخلتُ الحيَّ كديك حبشٍ بذيلٍ منتوف، ولما رغبتُ في صفع أيِّ أحدٍ لأبرّد نار قلبي، ولما قلعتُ عين مصطفى الوحيدة في سورة غضبٍ تافهة، لولا كلّ ذلك لكانت عين مصطفى اليتيمة الآن في صفحة وجهه، ولما كنتُ أوشك على الجنون .

أنا شابٌّ متعلّم، متعلّمٌ إلى حدٍّ معقول، أحمل الشّهادة

الجامعيّة الأولى، ولولا ضيق ذات اليد، لكنتُ الآن من حملة شهادة الدّكتوراة في حقلٍ من حقول الفيزياء التّي أحبّها، لكن الفقر قطعني في نصف الطّريق، حتّى أتعفّن في الحارة القديمة التّي أعيش فيها مع عائلتي التّي بتّ أنسى أحياناً اسم بعض أفرادها لكثرتهم، ولتشعّب حاجاتهم وظروفهم .

كان يمكن أن تتغيّر كلّ حياتي لو كنتُ غنيّاً، أو على الأقل لو لم أفقأ عين مصطفى بأداةٍ لم أعد أذكرها، ما أذكره الآن فقط صوت عويل مصطفى كما ذئبٍ أجرب أشعلوا النّار في ذنبه القذر، كان يصرخ كالممسوس، وهو مدمي العين، التّي سريعاً ما فرّ زلالها، ثمّ انزلق دمها لزجاً حاراً ينفر من تحت أصابع يده التّي شدّها إلى عينه، وهو يصرخ: "عيني، لقد قلعت يا محمود عيني . . . الحقيني يا أمّي، لقد فقأوا عيني". يومها أدركت أنّ للدّماء قدسيّةً، كان جسدي يرتجف وأنا أرى الدماءَ تتنزّى من تجويف عينه، ويومها أدركتُ كذلك أنّ عينه الأخرى زجاجيّة، أيّ مجرّد زينةٍ وتجميل، وأنّه لم يكن يرى إلاّ بعينه اليتيمة التّي فقأتها في ثورة غضبٍ مزعومة.

هل كانت نظرةً فضوليّةً على جسد شقيقتي الصّغرى وهي تشطف سلّم البيت، مشمّرةً عن قدميها حتّى الأفخاذ، تستحقّ عين مصطفى الوحيدة ثمناً لها؟الكلّ قال:" نعم". الجيران شدّوا على يدي مؤيّدين موقفي، حتّى الجارة أم مصطفى لم تعد تدعو عليّ بالعمى والعجز والفقر عندما هدأت سورة غضبها،وقبلت بنصيب ابنها من العمى عقاباً له على تجسّسه

على أعراض النّاس، والمصيبة أنّ المحكمة عدّت سلوكي الهمجيّ دفاعاً مشروعاً عن عرضي، واستشهد المحامي بآيةٍ كريمةٍ لتأكيد مشروعيّة سلوكي،فأيّده القاضي بإيماءة رأسٍ ثقيلة مع أنّ الآية الكريمة كانت لا تتناسب أبداً ومعرض ما استشهد بها عليه.

الكلّ قال إنّني معذورٌ في سلوكي، فاستكان مصطفى أمام حكم الكلّ، وقبلتُ بحكمهم وباستكانته لكي أنجو بريشي، ولكنّي كنتُ أعلم أنّ كلّ أفخاذ نساء الدّنيا لا تساوي عين مصطفى الوحيدة التّي طاردني زلالها الأبيض ليل نهار، ونغّص عيشي ومنعني من النّوم أو الأكل أو الرّاحة.

فكّرتُ في أن أقلع عين المدير وعين المواصلات وعين راتبي القليل بل وعيني، وأن أهبها جميعاً لمصطفى المسكين، ولكن لا عزاء لي أو له في ذلك إذ كنتُ أعلم أنّها جميعها لن تهبه حتّى ولو رمشة عينٍ واحدةٍ، ولا بارقة نورٍ وحيدة.

لم يعد مديري المرتشي ولا راتبي الحقير ولا المواصلات التّي تسحق الوقت والأناقة، ولا مستقبلي المتداعي ،ولا مآسي الدّنيا كلّها تعنيني بقدر ما تعنيني عين مصطفى، فكّرتُ طويلاً في أنْ أهبه إحدى عينيّ، وأن أعيش بالأخرى، وسرتُ قدماً في مشروعي الخطير، إلى أن خاب مسعاي عندما علمتُ من أوّل طبيبٍ حدّثته برغبتي أنّ عمليّةً بهذا الشّكل مستحيلة؛ لأنّ مشكلة مصطفى ليست في قرنيّةٍ مريضة، ولكن في جهاز إبصارٍ كامل قد أزيل من مكانه، ولا سبيل إلى الاستعاضة عنه

بآخر، وبذلك ضاع الأمل الوحيد لمصطفى، ومن جديد عادت عينه الفقيدة مشكلة حياتي، وكابوس ضميري.

من سوء حظّي أنّ غرفة نومي التّي اشترك بها مع إخوتي الثّلاثة ومع جدّي المسنّ تطلّ على شرفة بيت مصطفى، التّي بات مصطفى نزيلها الدّائم ليل نهار، كان مشغولاً دائماً بمتابعة برامج المذياع،قاطعاً بها ساعات يومه، وإن كان جهازه عُرضةً للتّوقّف والتّشويش، فقد كان مذياعاً قديماً بلاقط استقبالٍ مكسور، وبذلك كان سوء عملي لي في المرصاد، لا يفارقني أبداً، ولا يسمح لي بنسيانه برهة واحدة.

في البداية اشتريت مذياعاً جديداً وحديثاً لمصطفى بكلّ مال الجمعيّة الذّي كنتُ أدّخره لشراء بذلةٍ جديدة، ومن ثمّ حاولت إقناع أختي ذات الأفخاذ التّاريخيّة التّي أريق الدّم من أجلها، أن تقبل بالزّواج من مصطفى، لكن مع أوّل حذاءٍ ألقي في وجهي أيقنتُ استحالة تنفيذ طلبي، وكان آخر عمل ترضية أفعله من أجل مصطفى أن توسّطتُ له من أجل الحصول على عملٍ في معهد المكفوفين، للدّقّة رتّبتُ له هذا العمل مقابل تجاوزٍ ما قدّمتُه لأحد المراجعين القذرين الذّين يراجعون دائرتي باستكلابٍ مقيت.

وبدأت أحوال مصطفى بالتّحسّن، فقد تعلّم القراءة والكتابة بلغة المكفوفين، وبات يذرع الطّريق ذهاباً وإياباً بمساعدة عصى المكفوفين البيضاء التّي حصل عليها بالمجّان من مؤسّسة المكفوفين التّي يعمل بها، ولكنّه ظلّ على الرّغم من

ذلك مصطفى المكفوف، الذّي فقأتُ عينه دون وجه حقّ.

جلستُ طويلاً إلى نفسي، وحاكمتها بموضوعيّةٍ بابليّة، وأصدرتُ الحكم على نفسي دون تحيّز أو تجنٍ ،العين بالعين، والسّنّ بالسّنّ، والبادئ أظلم، لذا فقد حكمتُ على نفسي بالعمى، ثمّ تقدّمتُ لنفسي باستئناف رُفض على الفور، وبقي الحكم بالعمى قائماً، ولكن على أن يُطبّق على مراحل تتناسب وظروفي.

الحقّ أنّي كنتُ مستعجلاً ومتحمّساً لتنفيذ الحكم لكي يرتاح ضميري، ولكي أستطيع أن أنام بعد أرقٍ عمره أشهر طويلة، بالتّحديد عمره بعمر عمى مصطفى، في الأسبوع الأوّل من تنفيذ الحكم بعد صدوره، وبعد ردّ الاستئناف تخلّصتُ من نظّارتي التّي كانت بسمك قاع دورق تسخين، كان اليوم الأوّل صعباً جدّاً، فقد كنتُ أعاني من قصر نظرٍ كبير مع انحراف في الشّبكية ليس بالقليل، كانت الصّور مشوّشةً ومختلطة، عانيتُ كثيراً حتّى لبستُ ملابسي، وذقتُ الأمرّين حتّى وصلتُ إلى عملي، الذّي ما كدتُ أدلف إليه حتّى انتهت ساعات الدّوام الرّسميّ فيه.

في اليوم التّالي وصلتُ قبل انتهاء وقت الدّوام بساعتين، ولما لم أكن قادراً على القراءة، وتعذّر عليَّ أن أخبر الآخرين بوضع الرّؤية عندي، وبقرار محكمتي الذي صدر ضدّي، فقد اضطررتُ للتّوقيع بالموافقة على كلّ طلبٍ قُدِّم لي، الأمر الذّي فاجأ كلَّ من حولي، وأسعد مديري الفاضل!! وجعله يربّت على

ظهري قائلاً بنبرةٍ لئيمة: "الآن بدأتَ ترى الدّنيا كما يجب". ولكنّي بكيتُ طويلاً عندما وجدتُ مساءً في جيب بنطالي رزمة نقودٍ خمّنتُ مصدرها، وسبب وجودها.

مرّ أسبوعٌ على المرحلة الأولى من تنفيذ الحكم، بدأتُ أتأقلم فيها بشكلٍ مرضٍ مع وضع نظري، وأصبح لزاماً عليَّ أن أنتقل إلى المرحلة الثّانية من تنفيذ الحكم، لذا فقد ألزمتُ نفسي بإغماض عينيَّ ساعتين يوميّاً.

كانت هذه المرحلة أصعب من السّابقة، لكن سريعاً ما تعوّدتُ عليها، لا سيّما في ضوء ارتياحي فيها، وارتفاع نسبة أرباحي من الأوراق الموقّع عليها بموافقتي، بل إنّي كنتُ غير مضطرٍّ للالتحاق بعملي كلّ يوم، إذ إنّ الأوراق كانت تأتيني يوميّاً إلى البيت لتذيلها بموافقتي السامية، مع علاوات وحوافز العمل الإضافي التّي كانت تُصرف لي تحت بند مياومات وأعمال خارج الوزارة.

المرحلة الأخيرة كانت العمى الكامل، الحقيقة أنّي لم أنتقل إليها وفق الخطّة المقرّرة، بل وفق الضّرورة والتّعوّد، حتّى أنّي لا أذكر متى بدأتُ في الانتقال إليها، فقد وجدتُ نفسي أعيشها دون قفزةٍ انتقاليّةٍ أخيرة، والأمانة العلمية تقتضي أن أقول: إنّ مصادراً أمنيّة رفيعة أبلغتني بمباركتها لهذه الخطوة السّعيدة التّي تتوافق وخطّة المرونة التّي تنتهجها الدّولة في مساعيها لمحاربة البيروقراطيّة والفساد، ومحاربة شعاراتٍ أخرى لم أحفظ منها شيئاً، مع أنّي كنتُ مقتنعاً بضرورة حفظها

لترديدها عند الحاجة.

أصبحتُ أعمى تماماً، ولم أعد أفكّر أصلاً بالرّؤية التي كانت تسبّب لي المشاكل والهموم، وغدوتُ محظوظاً بعملي أكثر من مصطفى المسكين الذّي ما عدتُ أبالي به أبداً، وبتُّ أقول لنفسي، وأنا أهزُّ كتفيّ غير مهتمٍ كلّما خطر في بالي، وقليلاً ما كان يخطر: "له الله، هو المتكفّل بعباده . . ."، وسريعاً ما غدوتُ أقول مخاطباً نفسي العمياء" "ما ذنبي أنا فيما هو فيه؟ هذا قضاء الله وقدره" . . .

وقضاء الله وقدره اقتضى أن تتحسّن أوضاعي سريعاً، وأن أُعيّن بقدرة قادرٍ وزيراً في إحدى الوزارات، وأن أصبح شخصيّةً مرموقةً ترى بنور بصيرتها، وأن أنسى تماماً قضيّة العمى والإبصار، وأن أُعلّق على باب مكتبي في الوزارة لافتةً كُتب عليها بماء الذّهب لردّ الحسد بناءً على توصيات أمّي "هذا من فضل ربي".ثم استبدلتها بلافتةٍ أخرى كُتب عليها بالحبر الصيني الجاف بعد بارقة احتجاجٍ صحفي على استخدام المؤسسات الحكومي ماء الذّهب في إعلاناتها ولافتاتها"هذا بفضل حادثٍ مؤسفٍ سعيد جداً".فاقتلاع عين مصطفى غيّر حياتي وحياته إلى الأبد،يؤسفني إلى حدٍ ما أن أقول: إنّ حياته قد تغيّرت إلى الأسوء،وإن كان يسعدني ويجعلني لا آبه به أنّ حادثة عماه قد كانت طالع سعدي،فهي التي فتحت لي أبواب الحظّ على مصاريعها،ونقلتني إلى دنيا السعادة بعد شقاء طويل كان البصر والعناد السببين الوحيدين

فيه،أمّا بعد العمى فقد أصبحت الحياة أرحب،والمواصلات أقلّ ازدحاماً لا سيما أنّني بتّ أملك سيارة فارهةً بسائق خاص،وباتت مشكلة الأسكان محلولة،بل طرأت عندي مشكلة الغرف الشاغرة في قصري،مما استوجب أن أُعيّن عدداً كبيراً من الخدم لشغلها.

أمّا فيما يخصّ راتبي المتواضع فقد تضاعف مئات المرّات وفق نشاطي وتفهّمي للأمور التّي كنتُ قاصراً عن فهمها في الماضي، ولم تعدْ عندي مشكلة في التّفاهم مع مديري، إذ أصبحتُ مديره الأعلى . . . ووليّ نعمته . . . ودمتم . . .

بَطَل المِكْنِسة

لم يكن طالباً متفوّقاً، ولا وسيماً، ولا يمتُّ بأيِّ صلة قرابةٍ إلى المدير أو إلى أيٍّ من المدرّسين، ولكنّه كان الطّالب الأشهر في المدرسة الابتدائيّة، بل وفي الحيِّ القديم الذّي يسكنه، حتّى أنّه لم يكن هناك بيتٌ من البيوت المكدّسةِ على بعضها كما علب الكرتون المقوّى في مخزنٍ قديم في حيِّه وفي الأحياء المجاورة، إلاّ ويعرفه أحدٌ من صبيته، أسموه (بطل القِطَّة)، ثمّ أسموه بعد ذلك (بطل النّمرة)، بناءً على رغبته، فلم يكن من المناسب بعد أن كبر وأصبح بجسدٍ يسدُّ باباً بأكمله، وبعد أن استدارت عضلاته واستطالت عظامه، وخُطَّ شنبه أن يُدعى (بطل القِطّة)، إن لم يكن هناك بدٌّ من لقب، وهو من عشّاق الألقاب الرّنّانة، لا سيّما أنّه لا يملك سواها وجسده القويّ في

هذه الدّنيا، فليكن (بطل النّمرة)، ليتناسب ذلك مع إمكانيّاته وهيبته في الحيّ، وهكذا لقب لن يجافي الحقيقة، فالقِطَّة أصلاً من عائلة أو أقرباء النّمر، هذا ما قاله أحد أصدقائه الذّين تابعوا تعليمهم الجامعيَّ نقلاً عن أستاذه الجامعيّ ، وكلمة الأستاذ الجامعيّ فيصلٌ في موضوع كهذا.

كانت قطّة ابنة الجيران الأرمنيّة الجميلة قد صعدت إلى إحدى أشجار الحيّ، وعلقت هناك، ساءه أن يرى دموع ماتيلدا الجميلة، وخمّن أنّ هذه هي الفرصة المناسبة لكي يلفت انتباهها، شمّر عن يدَيْه، وقفع طرفي بنطاله مرقّع الرّكب، المخلوع السّحاب، وطفق يتسلّق الشّجرة بخفّة سعدانٍ صغير، كاد يقع أكثر من مرّة، لكنّه استطاع في النّهاية أن يصل إلى القطّة العالقة، وأن يمدّ يديه ليخلّصها من مأزقها، سريعاً عاد إلى الأرض، وسط تشجيع جمهورٍ غفيرٍ من صبية الحيّ، كان متعباً، ويحمل آثار جروحٍ من مخالب قطّة ماتيلدا، التّي رأى في عينيها شكراً وعرفناً أكثر ممّا رأى في عينَيْ صاحبتها الأرمنيّة الجميلة، التّي حملت قطّتها ،وابتعدت بعيداً.

حزن يومها ؛لأنّه لم يحظ باهتمام ماتيلدا الجميلة ذات الأثواب المزركشة، والظّفائر الكستنائيّة، ولكنّه حظي بتقدير صبية الحيّ، ولفت نظر الجميع إلى شجاعته، وتُوِّج من يومها (بطلاً للقِطَّة)، سرّه اللّقب كثيراً، وإن دفع ثمنه غالياً، فقد أوسعه أبوه ضرباً بحزامه الجلديِّ عندما علم بتسلّق ابنه الخطر للشّجرة إنقاذاً لقطّة ماتيلدا، ولكنّه لم يبالِ فقد أصبح

(بطل القِطَّة)، ومن ثمّ رُقي لقبه وطوّر ليصبح (بطل النّمرة)، وعلق اللّقب على هذه الدّرجة، ولم يترقّ أبداً بعد ذلك، بل سرعان ما نُسي تماماً، فقد كبر، وكبر صبية الحيّ الذّين توزّعوا على مناكب الدّنيا، كلٌّ أخذ نصيبه الموفور أو المتواضع أو حتّى المنهوب، وولّى بعيداً، نصيبه كان

دون جسده العظيم، ودون آماله العريضة، فقد توقّف به التّعليم حتّى المرحلة الإعداديّة، وقصُر به الحظّ في النّسب وفي الغنى، وقعد به الذّكاء، وأعيته الحيلة، فلم يكن حظّه إلاّ بمقدار مكنسةٍ وكيس قمامةٍ أسود وممسحةٍ منتنة، تنقّل في أكثر من عملٍ في النّظافة، ثمّ استقرّ به المقام ليكون عامل نظافةٍ في أحد بنوك البلدة، وحالفه الحظُّ والاجتهاد ودماثة الخلق ليترقّى ، وليصبح كبير عمّال النّظافة، وإن كان يحلو له أحياناً أن يشارك في أعمال التّنظيف إن دعت الحاجة إلى ذلك، أو إن حدث شاغرٌ بسبب غياب أو مرض عاملٍ من العمّال، أو كان على أهبة الاستعداد ضمن فريق موظفي الاستقبال للقاء ضيفٍ مهمٍّ من العاصمة، وما كان عمله ليحطَّ من قيمته في نفسه أو في نفس عياله وأهله، فقد كان يكفيه شرفاً أنّه يأكل من جني يديه، وأنّه ينفق على زوجته وعلى ابنته وعلى أمّه التّي أقعدها المرض من جهد جسده، وأنّه لا يقعد عن واجباتهم،ولا يقصّر في تلبية حاجيّاتهم،وكلّه من مالٍ حلال، يكسبه بعمله الدّؤوب،وإن كان يحلو لزوجته في لحظاتٍ من الصّفاء أن تداعبه بلقب (بطل النّمرة) الذّي بات يَعدّهُ مزحة طفوليةٍ لا

تليق بهيبته وبوقاره، وبمركزه الحسّاس، فهو الآن كبير عمّال النّظافة!! تمنّى في قرارة قلبه الذّي يتّسع لحبِّ كلِّ النّاس أن يصبح بطلاً لشيءٍ عظيم، ليفخر وابنته بنفسه، وليُسعد شيخوخة أمّه العجوز.

واستجاب القدر لأمنيته الصّغيرة، وغدا بطلاً من جديد في ليلةٍ وضحاها ، ولكن (بطل المِكْنَسَة) ،هكذا أسمته الصّحف الصّقراء التّي نشرت خبر بطولته المزعومة، وخيّبت آماله، وأذابته خجلاً، فقد حوّلته في لحظةٍ من (بطل النّمرة) إلى (بطل المكنسة)، شعر بانكسارٍ لا يذكر أنّه شعر بمثله من قبل، كان يتوقّع ويتوق إلى أن تنشر المجلاّت والصّحف المحليّة بل والعالميّة صورته بالألوان، وتحتها خبر بطولته مشفوعاً بمقابلةٍ معه تجريها مذيعةٌ جميلةٌ رقيقة، لكنّ ذلك لم يكن، فقد اكتفت بعض الصّحف المحليّة بنشر خبر بطولته في باب طرائف مشفوعاً بصورة المكنسة دون صورةٍ شخصيّةٍ له تحت عنوانٍ هزيلٍ يقول (بطل المكنسة).

كاد يبكي عندما قرأ الخبر، وحدّق في صورة المكنسة، قال ببله: "ولكنّ هذه ليست صورة مكنستي، هذه صورة مكنسةٍ أخرى، مكنستي أطول، وأقدم، وذات خشبٍ منخور من الأسفل". أحدٌ من المساجين لم يبالِ بملاحظته التّي ابتلعها بقهر، وشكر الله؛ لأنّه مسجون، وليس في الخارج، ليصبح نهباً لسخرية الزّملاء والجيران والأقارب، تمنّى أن تطول فترة سجنه حتّى يتسنّى للنّاس أن ينسوا لقب (بطل المكنسة) الذّي

أسبغه عليه أحد الصّحفيّين العابثين، وإن كان لا يعرف للآن سبب سجنه، كان يتوقّع أن يُجلب إلى هذا المكان ليتلقّى شكراً رسميّاً على بطولته وشجاعته، أو ليدلي بشهادته على أحسن تعديل، لكن أن يُوسع ضرباً فهذا ما لم يتوقّعه، وما لم يستطع أن يجد له مسوّغاً أو تعليلاً، فقد أدهشه أن يوضع في زنزانةٍ مع جمعٍ من السّياسيّين أصحاب الشّعارات التّي لا يفهم جُلّها، عندما رآهم للمرّة الأولى استعاذ بالله منهم، فقد سمع أمّه تسمّيهم كثيراً بالكفرة الذّين لا يخافون الله، في الزّنزانة لم يستطع أن يتأكّد إن كانوا لا يخشون الله، ولكنّه تأكّد تماماً من أنّهم لا يخشون السّوط أو العذاب الذّي يعرضون على ألوانه وأصنافه.

أمّا هو فيخشى السّوط، ويكره العذاب، ولا يرغب في المزيد منهما، كم مرّةً قال للمحقّقين أنّه ليس إرهابيّاً، وأنّه ليس شريكاً لذلك المسلّح الذّي هاجم البنك الذّي يعمل فيه بهدف السّطو عليه، كم مرّةً قال للجلاّدين وللمحقّق ذي الأنف المعقوف والإبطين المنتتين أنّه تفاجأ باللّص شأنه شأن غيره، وأنّه استغلّ اضطراب اللّص ليهاجمه بمكنسته الكبيرة، فيكسر ذراعه، ويستولي على مسدّسه، ويبرخ عليه إلى أن تأتي الشّرطة وسط هرج ومرج وتصفيق المراجعين وموظّفي البنك الذّين علقوا فيه بعد مهاجمة اللّص.

لكنّ المحقّق سدّ أذنيه القبيحتين دون كلامه الذّي كرّره ألف مرّةٍ،وأصرّ على أنّه شريكٌ للّص،مع أنّ اللّص لم يكن أكثر من

شابٌّ صغير يحمل مسدّس أطفال لا مسدّساً حقيقيّاً، لم يستطع أن يدرك سبب سلوك اللّص، لكنّه أيقن وهو يبكي خائفاً أنّه أبرأ من أن يكون لصّاً أو قاتلاً، وأنّه أقرب ما يكون إلى طبقة الحرمان والفقر والحاجة التّي يحفظ عن ظهر قلبٍ قسمات أصحابها.

ولكنّه ليس إرهابيّاً أو لصّاً بل مجرد عامل نظافةٍ شجاعٍ هزم مسلّحاً بمكنسةٍ ذات ذراعٍ خشبيٍّ، فلماذا يُضرب على قفاه دون رحمةٍ؟! ألا يكفي أنّه قد سُمّي (بطل المكنسة)، ولكنّه (بطل النّمرة)، وإن لم يبالِ أيُّ أحدٍ بسجلِّ بطولاته، فقد خيّم حزنٌ عجيبٌ على ملامح السّياسيّين الذّين حزنوا على الفتى اللّص الذّي لفظ آخر أنفاسه تحت التّعذيب بعد أن رفض أن يوقّع على اعترافٍ بعضويّةٍ مزعومةٍ لإحدى الفرق المتطرّفة.

من يومها غاصت رقبته بين ترقوتيه خجلاً، فقد كان بطل المكنسة الذّي سلّم الفتى للتّعذيب، وسلّم نفسه للمساءلة، مع أنّه أقسم ألف مرّةٍ على أنّه ما أراد إلاّ إصلاحاً ودفاعاً عن الوطن، رأى التّعاطف في عينَيْ من حوله من المعتقلين، وإن لم يره في عينَيْ المحقّق الذّي أمر بإطلاق سراحه لعدم توفّر أدلّة إدانته،بعدأن تساقط لحمه على أسواط التعذيب.

تمنّى أن يخرج إلى دنيا قد نسيت تماماً بطولته المزعومة، ولكنّ بطولته العظيمة كانت في انتظاره، فقد ناداه الكلُّ متندّراً أو ساخراً بلقب(بطل المكنسة) ، زوجته شكت له من سخرية جاراتها اللّواتي ينادينها من باب الإغاظة أو التّندّر بلقب زوجة

بطل المكنسة، ابنته الصّغيرة كانت لا تزال تحتفظ بفخرٍ بصورة المكنسة التّي نشرتها الصّحف في مجموعة صورها الخاصّة، مدير البنك وقّع قرارين في شأنه ، أحدهما يقضي بصرف مكافأة مالية زهيدةٍ تقديراً لشجاعته، والآخر يقضي بفصله من العمل لأسبابٍ أمنيّة.

لم يبالِ بالقرارين اللذّين مزّقهما بقرفٍ، فتناثرت الأوراق الصّغيرة في الهواء، وسقطت بفوضى على رخام بوّابة البنك، أحد عاملي نظافة البنك، اقترب منه، ولسان حاله يرجو أن لا يلحظه أحد، ربّت على كتفه معزّيّاً، وقال: "ولا يهمّك يا وحش . . . أبواب رزق الله كثيرة". ابتسم له غير مبالٍ، وربّت على يده ،وقال وصوت تعذيب المعتقل يطِنّ في أذنيه، ودمعة تختنق في محجري عينيه ،وأوداجه منتفخة كديكٍ روميّ: "لا تقلق عليّ . . . فأنا بطل المكنسة" . . .

سُـــــــهـــــــاد

"إلى روحها التي ظلّت حشرجةً محرقةً في حلق طفولتي "

الجسور الجديدة قلّما تثير اهتمام أطفالٍ صغار، لكن قد تفعل إذا كانت طريقة لتبديد وقت الدروس المملّة، وحجة مسوّغة للإجابة الخاطئة، ومبرراً لعدم السمع ، وملهاة لذيذة في متابعة آلات البناء، و في الاحتجاج على صوت المطارق والمخارق، ومتابعة وهج لحام الحديد الأحمر الذي ينهك الأبصار، ويخطف ناظريّ كلّ من يتابعه .

من غرفة صفنا المعلّقة وحيدةً فوق سطح المدرسة القديمة، التي تحدّثك جدرانها المشققة،وزواياها المهترئة التي تسرّب ماء الشتاء عن أنّها آيلة للسقوط على رأس ألفين ونيف من تلميذات المدرسة ، اللواتي تتناثر منازلهن حول المرتفع الجبلي الصغير الذي تقبع على قمته المدرسة ، كنا نراقب بنّائي البلدية

وموظفي المشروع يقطعون نهاراتهم تحت الشمس الكسيفة التي تبزغ على استحياء في سماء الشتاء الممطرة، فترسل دفئاً نزراً، لا يكفي لبعث الحرارة في أيدي العاملين الملتفين على القواطع الحديدية يلحمونها، ويسدون لحمتها بمسامير حديدية سميكة، ضامرين على أكف علتها برادة الحديد، وكساها قرّ الشتاء بالحمرة والقشب .

كنا ننتظر بفارغ الصبر أن تتنتهي الحصة، فتخرج المعلمة متثاقلة كما ديك رومي، فنتسابق ونحن كثر ننيف على أربعين تلميذة إلى نافذة الصف الوحيدة، ندسّ رؤوسنا غير مبالين بحوادث اصطدام الرؤوس الصغيرة التي قد تُسفر عن بكاء وشجار وخصام، نتابع وهج لحام الحديد، ونصرخ بغوغائية تستجلب نظر العاملين علّنا نقصف رتابتهم، ونشوّش عملهم، لا لشيء ،بل بقصد الشقاوة والتندّر، نتسابق في رصد قطع الحديد التي أضيفت حديثاً إلى هيكله في الجسر الذي يمضي بناؤه قدماً، تعلو الأصوات: "هذه الدعامة جديدة"، "هذه الحديدة لم تكن البارحة"،" تلك القواطع الحديدية المركونة جانباً ستصفّ هناك على أرضية الجسر". نحصي كلّ شيء، حتى عدد أقداح الشاي التي تنزوي قذرة ببقايا شاي بارد في صينية معدنية قديمة مبعوجة الوسط إلى جانب الطريق .

لم نر جسراً حديدياً معلقاً في حياتنا من قبل، مع أنّ إحدى تلميذات الصف المسماة الغليظة ؛ لا لشيء إلا لأنّها ابنة مسؤول في الوزارة ، ولأنّ لها أجمل عينين خضراوين في الصف ادّعت

أنّها قد رأت مئات الجسور المعلقة في إحدى البلاد الاجنبية التي زارتها في العام الماضي مع أسرتها، لكنّها ما حظيت منا إلا بالسخرية والتكذيب، فما كنّا لنصدق أنّ هناك مئات الجسور في بلد واحدة في الدنيا، لا بدّ أنّها بلدٌ وهميةٌ من بنات خيال زميلتنا،لاسيما أنّنا لم نستطع حتى أن نعيد لفظ اسمها بعد صديقتنا التي أبدت اعتزازاً خاصاً؛ لأنّها قادرة على لفظ اسم بلد تعجز ألسنتنا الصغيرة على لفظه .

ما كنا لنتخيّل كذلك أنّ جسراً ما يمكن أن يُبنى في الفراغ المخيف الممتد وادياً سحيقاً بين الجبلين اللذين تتكون منهما بلدتنا الصغيرة، كان على الراغب في الانتقال من جبل إلى آخر أن ينزلق حتى سطح الجبل ،ثم يقطع الوادي الذي يقطعه طريقان سريعان كثيراً ما يُدهس عليهما الأطفال والشيوخ الذين لا تسعفهم قدراتهم في اقتناص اللحظة المناسبة لقطع الشارع وسط سيل من المركبات التي تسابق الريح، ولا تُبدي أيّ رغبة في مطالعة العابرين، فتلصقهم بالإسفلت تحت عجلاتها، ومن ثم ارتقاء درجات السلم، وما أكثرها!! للوصول إلى البيوت أو إلى السوق الذي يربد باستحياء بدكاكينه القديمة ،وبزبائنه القلة في قلب الجبل الغربي تحت اسم سوق المدينة .

أسعدتنا فكرة وجود جسر معلّق يربط بين جبليّ البلدة، وييسر الانتقال بينهما، ويجعله آمناً، ومن يدري فقد تسمح لنا أمهاتنا بزيارة صديقاتنا اللواتي يسكنّ في الجبل المقابل بعد

أن يصبح الانتقال آمناً وسهلاً، لا يستلزم مرافقة كبير يساعدنا على قطع الشارعين الممتدين في أسفل الوادي، ثم يقفل راجعاً، ليعود بعد ساعة أو ساعتين ليصطحبنا إلى بيوتنا.

سريعاً ما وضعتُ قائمة بأسماء زميلاتي في الصف، وقد كنّ الفتيات الوحيدات اللواتي أعرف ؛لأزورهن بعد أن ينتهي بناء الجسر، وقد بدا الانتهاء قريباً، حتى الطالبات اللواتي لم استطلفهن يوماً قمت بإدراج أسمائهن في قائمة زياراتي، فأنا قادرة على احتمال ثقل ظلّهن، وقادرة كذلك على تجشّم عبء زيارتهن على أن أقطع ذلك الجسر ولو مرة واحدة . بسرعة رتّبت الحجج التي سأسوقها في مذكرة مرافعتي أمام أميّ كي أقنعها بقائمة زياراتي،وذلك وفق أهميتها، تنهّدت، وأخذت نفساً عميقاً فقد كنت أعرف أنّ الوقوف أمام أمي والتصدي لإقناعها ليس بالأمر السهل،لاسيما إذا كان ذلك بشأن زيارة صديقة أو بشأن التأخر ولو لدقائق عن موعد العودة إلى البيت، ولا سيما أنّني لا أزال طفلة مفعوصة لم أفقص من البيضة بعد، على حد تعبير خالتي الوحيدة التي تحظى بوافر حبّ واحترام وثقة أمي، التي قد أستعين بها لاقناع أمي بقائمة زياراتي الخطيرة .

مديرة المدرسة منعتنا مراراً من التكوّم كما دجاج مزرعة على نافذة الصف خوفاً من أن تسقط إحدانا منه، ولكننا ما استجبنا لأمرها ولا لتهديدتها، فقد كانت مراقبة بناء الجسر

سابقة لا تملك طفولتنا الفضولية أن تتجاوز عنها، إذن لم يكن أمام المديرة إلا أن تذعن لفضولنا، وأن تساوم حدّاداً ما، وتستصدر فاتورة شراء، لتزرع قضباناً حديدية في النافذة لحمايتنا، ما دمنا نصرّ على أن نراقب بناء الجسر حتى من بعيد في غمرة انهماك الحداد في تثبيت القضبان الحديدية، ضاربين صفحاً عن جعجعة معلمة الرياضيات السمينة، التي انبرت مهتاجة كديك ينوي التبرّز تريد أن تلفت انتباهنا إلى السبورة، لنتابع حلّها لإحدى المسائل التي لم نفكّ أبداً طلاسم حلّها في يوم من قبل ، في حين كان اهتمامنا كلّه موزع بين متابعة تثبيت القضبان الحديدية، وبين سيرورة بناء الجسر الحديدي المعلّق.

ولم تطل إطلالتنا من خلف القضبان الحديدية، فسرعان ما فرغ فريق البناء من عمله، وشغلت المدرسة على اعتبار أنّها المؤسسة الحكومية الأقرب من الجسر بتحضير كلمات ترحيب، وتهيء أماكن الاستقبال للضيوف الرسميين على رأسهم ذلك السمين ذو الكرش المسترسل كعجين خامر ،ويُدعى رئيس البلدية، الذين جاؤوا جميعاً على شرف افتتاح الجسر، الذي ما رأيته مغلقاً حتى يحتاج إلى افتتاح، فضلاً عن حاجة مزعومة لحفلة كبيرة ولمدعوين غرباء يرتدون بذلات أنيقة .

معلمة الفن المعلمة الوحيدة التي كانت تجيد طقوس الضحك والسعادة فاجأت عينيّ الفضوليتين اللتين تراقبان الضيوف، وتحصيان القادمين الجديد باهتمام لا مبرر له،

بحاجة حفل الافتتاح إلى طفلة استقبال، الكل شدّه بلفظ طفلة استقبال التي لم نسمع بها من قبل، وخمّنت طفولتنا أنّها وظيفة حسّاسة ما دام الموقف يلّح عليها، على عجل وباختصار قالت معلمتنا :" إنّ طفلة الاستقبال هي الطفلة التي تحمل الزهور لتقدّمها إلى راعي الافتتاح، وتتحني مبتسمة، بعد أن تمدّها إليه ليلتقطها وليقبّلها ،ثم يتابع الركب مسيرته ." تغاضينا جميعاً عن أزمة القبلة الواجب إعطائها للسمين ذي الكرش، وحدّثنا بعض بحماس بأمنية طفلة الاستقبال، على عجل تفرّست معلمتنا في وجوهنا المفعمة بالشقاوة بعد استراحة الغداء ، ثم مدّت يدها سريعاً إلى كتفي، تناوشتني كصقر يتخطّف فريسته، ومسّدت سريعاً على شعري ،فعالجت الشعرات المتطايرة هنا وهناك بعد رحلة يوم أمضيته بالتدافع والتماحك بطالبات الصف، وعدّلت من وضع هندامي، فخمّن الكلّ بغيظ طفولي وحسد مجتلب أنني سأكون فتاة الاستقبال .

كانت المهمة أسهل مما تخيّلت، وأطول مما أمّلت، وأقلّ أهمية مما تصوّرت، فقد نُصبت ساعتين على مدخل الجسر مع حشد غفير ينتظر إقبال السمين ذي الكرش، الذي عجبت لتأخره، البعض همس إنّ التأخيروترك الناس تنتظر في الشوارع من طقوس تأكيد الأهمية، ثم أطلّ السمين مع حشد كبير من المرافقين ومعلمات المدرسة،اندسست بصعوبة بين الأجساد المتعرّقة على الرغم منبرودة الطقس إلى أن جاء دوري ، تقدّمت دفعاً إلى ناحية السمين ، ناولته الزهور بلا

مبالاة من يحمل حزمة فجل، تقبّلت قبلته الرطبة بتبرّم، ثم ابتلعني الزحام من جديد، الجسر اضطرب بالموجودين، اهتزازه الرتيب بعث الخوف في نفسي، وتساءلت إن كان الجسر سيهوي بنا جميعنا في يوم افتتاحه، ومن مكاني المزدحم ألقيت نظرة غير مقصودة على نافذة صفي الموشّى بالرؤوس التي تراقب الافتتاح بتحسّر، شعرت بالفخر، وأحسست أنّ شرف الوظيفة الخطيرة التي اضطلعت بها تستحق الموت اختناقاً بين جموع الحاضرين، أو سحقاً عندما يسقط الجسر.

لكن الجسر لم يسقط، وفخري بمهمتي الخطيرة سرعان ما تلاشى مع أول يوم فُتح به الجسر لاستعمال العامة، ولم يعد الوقوف عليه فضلاً أو تميزاً يستحق الذكر، ولأنّ والدتي رفضت وبشكل قطعي ونهائي قائمة زياراتي، فقد اكتفيت يومياً بذرع الجسر ركضاً ذهاباً وإياباً مع شقيقتي التي تصغرني بسنة، ثم القفول راكضتين إلى بيتنا نحمل وزناً اسمه حقائب المدرسة المكدّسة بالكتب الثقيلة والدفاتر العديدة .

ما تخيّلت أنّ أختي التي أفوقها جرأة، وطول لسان على حد تعبير أبي، سوف تكون أول متمرّدة على حظر قطع الجسر، ولكن كيف لا؟! ودموعها الطفولية وملامحها الكسيرة الغارقة في سمرتها الفاتحة قد كانت خير سفير لها عند أمي، كانت ترغب في زيارة صديقة صغيرة، تسكن على الطرف الآخر من نهاية الجسر، كدت أحتجّ على السماح لها دون السماح لي

بزيارتي الجليلة، لكن حجة أختي وإسناد مهمة مرافقتها لي ألجمتا احتجاجي، فقد كانت زيارة أختي ليست سوى سفارة تعزية لصديقتها الصغيرة التي أُصيبت بموت والدتها منذ أيام.

اعتدنا أن نذهب زرافات برئاسة مربية الصف في حالة التعزية أو التهنئة أو الاطمئنان على الصحة، ولكن أختي الصغيرة لسبب ما عادت طفولتي تذكره اختارت أن تتصدّى وحدها لواجبها الإنساني، وأن تحزم نفسها حاملة رطلين من السكر لتعزية صديقتها، ولانّي الأخت الأكبر، الأطول قامة، والأقوى بنية، فقد حملت رطلي السكر بشجاعة مدعاة ولهاث أتحرّى كبته إلى أن وصلنا إلى باب بيت الصديقة الصغيرة، استحضرت كلّ شجاعتي وسؤددي في تلك اللحظة، ألست الأخت الكبرى والمنتدبة لرعاية أختي الصغيرة؟ كما أنّني اجتزت قبل دقائق الجسر المعلّق بكلّ رزانة ،دون أن أذرعه ذهاباً وإياباً ركضا كعادتي، ودون أن أدسّ رأسي بين قضبانه لأراقب من علِ المركبات التي تنسرب تحته، ودون أن أقفز عليه إلى أعلى ثم إلى أسفل تحت كي استمتع بمنظر المارين الخائفين. لقد كنت باختصار مثالاً للرزانة والاتزان، ناهيك عن أنّي أحمل هدية تعزية مثل أيّ سيدة محترمة مسؤولة جاءت تقدم مشاعرها الرقيقة دعماً في لحظة فراق الموت .

كان باب البيت الحديدي الصدأ ذو النافذتين الزجاجتين الصغيرتين نصف مشرع، لكن تأكيداً على حسن تهذيبي،

قرعته حتى أذَنَ لي صوت نسائي كسير بالدخول، دفعت الباب إلى الداخل ،ودلفتُ وأختي إلى البيت، قبالتنا تماماً كانت تقف فتاة في منتصف العشرينات، يسبقها بطن متكوّر بحمل عظيم، بتلعثم أخبرتها أننا جئنا لنعزي سهاد بموت أمها، طلبت منا بعطف وحنو أن نجلس، ركنا كيس رطلي السكر إلى الحائط المقشور الطلاء، وتكومنا دون أن نخلع أحذيتنا الشتوية التي نلبسها بالعادة بمساعدة أمي على حشيّة بالية تقابلها حشيّة بالية أخرى ، تكوّمنا في سنتميترات قليلة، وانتظرنا أن تأتي سهاد التي ما كنت قد قابلتها من قبل، فقد كانت في صف أختي، التي لا أعرف من طالباته إلا واحدة أو اثنتين هما الصديقتان الأعز لأختي، أمّا سهاد هذه، فلا بد أنّها ليست من صديقات أختي المقربات ، وإلاّ لكنت عرفتها .

وجاءت سهاد بعد دقائق من الانتظار، وقوفها بالظل حرمني للوهلة الأولى من أن أميّز ملامحها التي سرعان ما تبينتها وهي تتكوم في حيزٍ صغيرٍ على الحشيّةالمقابلة، كانت ضئيلة ،تبدو في الرابعة من عمرها، لا في السادسة من عمرها في مثل سن شقيقتي، تلبس بنطالاً كتانياً قديماً، وسترة بنية رقيقة، شعرها متراجع إلى درجة كبيرة، فتظهر جبهتها الصغيرة، وعينيها الغائرتين في جمجمة مكسوّة بجلد رقيق مصفرّ تعلوه وجنتان ذابلتان ، وابتسامة كسيرة غائرة .

دموعها كانت الأبرز في مشهدها الحزين وحضورها الكسير ، بكت بهدوء لم أعرفه في أترابي من الأطفال ، حملت

حزناً وقوراً جعلها تشيب في أيام، وتنضج في فترة غيابها القصيرة عن المدرسة، صمتتْ برهة ،ثم حدّثت أختي على استحياء، بعد أن ظننت للحظات أنّها لا تعرف أختي أصلاً، تهامستا بوجل ، لم يعنني ما يقال، فكلّ ما يُقال لن يمسح حزن سهاد، ولن يلغي يتمها، كانت يتيمة الأب، وها هي الآن تغدو لطيمة سخيمة، دون أبّ أو أمّ، تصارع وحدها اليتم ومرض الفشل الكلوي الذي يفتك بجسدها الظئيل، ويكسوها شحوبة وصفرة وعجزاً.

انتهى الوقت المحدّد لزيارتنا نزولاً على رغبتي أمي، لم أكن أعرف من كلمات الاستئذان شيئاً، وما خلت أنّي سأحتاجها، لذا اكتفيت بالانتصاب على قدمي وأمر أختي بالمغادرة، صافحت بإجلال يد سهاد التي امتدت إليّ هزيلة ضعيفة، تمنّيت لو أنّها تقبل علي لأحضنها بقوة، لكنّها لم تكن تعرفني، وأنا لا أملك الجرأة الكافية للمبادرة في ذلك، أدرت ظهري، وتجاوزت باب البيت، على الرصيف تذكّرتُ آسفة أنّني لم أصافح الموجودين مودّعة، عزائي الوحيد في ذلك أنّ أمي غير موجودة لتعنفني على سلوكي الفظّ، انحيت بحذر نحو أختي، وسألت بفضول طفولتها الغارقة في الحزن الذي عرفته لأوّل مرة في حياتها القصيرة :"من سيتولى رعاية سهاد ؟ "

أجابت بنبرتها الخجولة وصوتها المكبوت بعد دموع غالبتها طويلاً، فغلبتها : " سترعاها أختها؟"

- "أختها المتزوجة ؟"

- "نعم ."
- "أستنتقل للعيش عندها ؟ أم أنّ أختها ستنتقل للعيش معها ؟ "
- "لا أعرف."
- "متى ستعود سهاد إلى المدرسة ؟"
- "لا أعرف."
- "متى ستكونين تعرفين أيّ شيء ؟"
- "لا أعرف ."

من جديد قطعنا الجسر المعلّق قافلتين إلى بيتنا، الجسر هذه المرة كان أقل إثارة، حتى أنّي لم أفكر ولو للحظة في التوقّف في منتصفه لأراقب سير السيارات المسرعة، أو لأصدّي وجهي للرياح، كان الجسر رتيباً مملاً وطويلاً، شعرت بأنّني أحمل حملاً ثقيلاً يعوق حركتي، ويثقل كاهلي، ويحني رأسي بانكسار إلى الأسفل، طوال الطريق لم أنبس بكلمة وأنا أشد على كفّ أختي، أجرّها خلفي كالمعاقبة، ولا أنفكّ أتمنّى الوصول إلى البيت، والتكوّر باكية في حضن أمي،التي بِتّ أشعر بامتنانٍ كبيرٍ للربّ الذي يتركها في إسار الحياة ،لنجدها في البيت كلما عدنا إليه.

أردت أن أبثها حزني الأول الذي تجرّعته طفولتي بقسوة، كانت أوّل مرة أبكي فيها لأنني حزينة، لا لأنّني أريد لعبة

جديدة، أو لأبدي غيرة من أخ أو أخت، لأوّل مرة أعرف أنّ الأمهات قد يغادرن دنيا الأبناء دون عودة، لم أكن أعرف أنّ رحيلهن يترك غصّة في الحلوق لا ترحل أبداً، تماماً مثل غصّة سهاد التي قابلتها اليوم لأوّل مرة في حياتي، ثم لم أقابلها بعد لقائي الأوّل والأخير، ولكنّها بقيت خالدة لا تفارق ذاكرتي ، وتلّح دمعة أمسحها على عجل قبل أن تتنزّى من عينيّ ،لأجد نفسي متورّطة في اجترار ذكرى حزن طفولتي الأول، فأحزان الطفولة لا ترحل أبداً، لا سيما الأولى منها.

في البيت حضنتْ أمي أختي بقوة، ومسّدتْ على شعرها الأسود القصير، ثم أجلستها على ركبتيها، حدثتْ طفولتها الحزينة، وأجابت عن أسئلتها الطفولية التي تلتهب بأخطر أسئلة البشريةوأقدمها، أعني أسئلة الموت والحياة، صدر أمي الذي تمرّغ أختي وجهها الكسيف الباكي فيه كان مقبرة لدموعها، أمّا دموعي فقد احتبستْ في صدري، عالجتُ صمتها بشجاعة حتى استقام لي مطلبي، وبذا كنت الأخت الكبيرة الشجاعة المتماسكة، ولكنّني ما زلت بعد سنوات طويلة في حاجة إلى صدر أمي ؛لأبكي فيه يتم سهاد، التي لم تعد أبداً إلى المدرسة .

مراراً سألت عن سهاد، تفقّدتُ مقعدها في الصف سراً بنظرة مسروقة كلما مررت على صف أختي لاصطحبها في رحلة عودتنا إلى البيت، لكن مقعدها بقي شاغراً إلى أن شغلته طالبة أخرى ، ونسي الكلّ سهاد التي قضت أسابيع يتمها الأولى في المستشفى تترجّى شفاء كليتين سقيمتين ، صمدت ما

استطاعت إلى الصمود سبيلاً، ثم أسبلت عينيها اللتين غارتا بقوة في محجريهما، ومدّت كفاً للموت، ورحلت وحيدة، دون أن ينعاها أبّ، أو تبكيها أمّ.

لم تسمح أمي لي ولأختي الصغيرة بأن نشارك في تشييع جثمان سهاد الذي استقرّ في نعش صغير، تحمله أكتاف قليلة، أختي بكت سويعات احتجاجاً، ولزمت الفراش يوماً، أمّا أنا فما باليت بقرار أمي، من نافذة صفي راقبت بيت سهاد، وجوه قليلة كانت في وداع نعشها الذي انطلق تحمله سيارة، وتشيعه ثلاثٌ أخر، كان رحيلها حزيناً ووحيداً ومنكفئاً على نفسه كما كانت هي.

بعد أن غادر نعشها البيت أُغلق الباب الحديدي الصدأ ،ولم يفتح أبداً، إلى أن جاءت جرافات ضخمة، واقتلعته مع جدران البيت، بعد أن باعه الورثة، ورحلوا دون عودة، أّما سهاد فقد بقيت وجهاً كسيفاً يعلو بانكسار جسداً متكوماً في حطام جسد صغير على حشيّة قديمة إلى جانب باب الحديد صدأ في ممر معتم صغير، وجهاً يحرّض روحي على حشرجة بكاءٍ ما فارقت حلقي قطّ، وتستعدي ذاكرتي على التذكّر كلما مررتُ بجسر معلّق، تراقب نوافذ طفولية بناءه ، فأبحث سريعاً عن وجه سهاد المنضود في ذاكرة طفولتي التي عرفت سهاد حزناً ، والحزن سهاد ، وتردّني طفلة صغيرة تتكوّم بخجل على حشيّة تنتظر أن يهلّ وجه سهاد في كلّ مأتم تذهب إليه، فسهاد ميتم لم يرحل من روحي...

مهرجان البصل

لم تجد أنّ من المناسب أن تحضر مهرجاناً وهي أرملةٌ من عهدٍ قريب، فضلاً عن أنّها في مزاجٍ متعكّر منذ وفاة زوجها على الرّغم من أنّها من عشّاق المهرجانات، ومن الذين يضفون عليها بهجةً خاصّة، ويورثونها طقوساً مستحدثة طريفة، ومن الذّين يحدثون بها بدعاً متّبعة، لكن حماتها أصرّت على أن تحضر هذا المهرجان بالذّات كي تبرأ من الأرواح الشّريرة التّي تلازمها كما تدّعي الحماة المستسلمة للوساوس وللخرافات، والموتورة بابنها الوحيد الذّي مات غرقاً في النّهر المقدّس بعد زواجه بأشهرٍ قليلة، ومذّاك آمنت أنّ أرواحاً شريرة سكنت بيتها، واستوطنت جسد الكنّة التّي حلّت الكوارث منذ أن حلّت في بيتها.

ونزولاً على رغبة الحماة جاءت اليوم إلى "مهرجان البصل"

حيث يلتقي المحتفلون كلّ عامٍ مرتدين أبهج الملابس، وأجمل الإكسسوارات مطوّقين بزهور الرّبيع، ومتخفّين وراء أقنعةٍ ملوّنة على شكل حيواناتٍ وطيور. كان المهرجان المقام على الحدود الشّرقيّة للغابة يضجُّ بالموسيقى وقرْعِ الطّبول، وآلاف الأجساد التّي تتداعى في هرجٍ ومرج في لوحةٍ فنيّةٍ تضجّ بالحركة، تابعتها آلاف العيون البارزة من تحت أقنعة التّنكّر الملوّنة، فلا يجوز في هذا الحفل أن يُظهر أيّ شخصٍ وجهه خوفاً من أن تعرفه الأرواح الشّريرة التّي ترصده، فتصيبه بشرورها، وتلازمه بخبثها.

وصلتْ في وقت الأوج تماماً حيث تدشّن عشرات الأطنان من البصل ،تمهيداً لتوزيعها على المحتفلين بطقوسٍ بهيجة ضاحكةٍ، وبمرافقة ترنيمات سدنة المعبد، لتبدأ مراسيم تقشير البصل وفرك الأجساد به، وصولاً إلى الغاية المرجوّة ،وهي تهجير الأرواح ،الذّي يعد البصلّ تعويذةً للقضاء عليها وعلى شرورها، كلُّ محتفلٍ جاء مؤمناً بأنّ روحاً شريرة ما حلّت في حياته، وهو في سبيل ذلك سيفرك جسده بالبصل حتّى يهيّج بشرته لكي يجبر الأرواح الشّريرة على مفارقته ،والهروب بعيداً.

اعتادت أن تأتي إلى هذا المهرجان برفقة أمّها وأختَيْها، ولكن اليوم جاءت وحيدة ، فأسرتها الهندوسيّة المتديّنة المحافظة تشعر بالعار والخزي بسببها منذ أن رفضتْ أن تُحرق نفسها قرباناً إلى جانب زوجها المُسجّى على أعواد الخشب تمهيداً لحرقه ، ولنثر رماده في النّهر المقدّس الذّي قضى فيه

غرقاً، فهي وإن كانت زوجته لم تكنّ له الكثير من الحبِّ والعاطفة، وبعبارةٍ أدقّ ما شعرت أنّ ما في قلبها من حبّ يكفي لأن تحرق نفسها في أتون موته، ما زالت تحلم بالكثير، وتتحسّس يداً مثيرة تدبّ على جسدها كلّما استلقت في الفراش وحيدةً في بيت حماتها منذ أن رفضت عائلتها أن تأويها احتجاجاً على سلوكها المشين، في حين قبلت بها الحماة نوعاً من إكرام ذكرى ابنها، وطمعاً في أن تستخدمها خادمةً بالسّخرة في شؤون البيت والحقل،وكذلك كانت.

أحد المحتفلين حدّق في وجهها الأسمر الجميل الذّي تعلوه علامات حزنٍ ،ويخلو من أيِّ طلاء زينة، وقال لها على عجلٍ وبفضول: "يا جميلة . . . لماذا لا تلبسين قناع التّنكّر؟! بهكذا وجه جميل سوف تستقطبين كلَّ الأرواح الشّريرة، وقد تخطفكِ روحٌ منها، وتسجنكِ بين البحر وزبده."

ابتسمت للفضوليِّ الذّي ابتعد منخرطاً برقصٍ عذبٍ يمسُّ كلَّ أعضاء جسده، ويبعث فيها فوضى لذيذة ونشاطاً مثيراً، تحسّست بكفّها التّي أضناها العمل وجهها الذّي كادت تنسى شكل قسماته، كان دافئاً ناعماً، بعينيها اللّوزيّتين ألقت نظرةً شزرى على ثوبها الخشن الذّي ما انفكّت تلبسه منذ أن أصبحت أرملة، تنهّدت وهي تتخيّل كم كان جسدها سيبدو جميلاً ورشيقاً لو كانت تكسوه بسارٍ مزركشٍ شفّافٍ يظهر خصرها النّحيل، وبطنها الضّامر، ويبرز وشمها الجميل الذّي يحيط بصرّتها الغائرة حيث وضعت قرطاً فيروزيّاً لامعاً.

جموع الرّاقصين دفعتها خطوتين لا إراديّتين إلى الأمام، اصطدمت بالمحتفل الذّي يقف قبالتها تماماً، فدفعته بدورها خطوةً إلى الأمام دون أن تحكم السّيطرة على نفسها لتقف، وما كادت حتّى انزلقت وإيّاه في قشرة بصلٍ زلقة، تكوّم كلاهما على الأرض، انتابها شعورٌ خليط من الخجل والغضب والاضطراب، حاولت أن تتنصب لكنّ محاولتها باءت بالفشل، ومن جديد انزلقت أرضاً، لتصبح تماماً في حضن المحتَفل، سريعاً ما تسرّبت إلى جسدها حرارة جسده، وانسلّت عيناها لترسوان تماماً في عميق عينيه البارزتين بجرأةٍ وتحدٍّ من تحت قناع البومة الذّي يتنكّر به.

رأت ابتسامةً شقيّة تركض في صمت عينيه، ساعدها على الوقوف، وانتحى بعيداً، بعد أن أهداها قناعه قائلاً بنبرةٍ صاخبةٍ متحدّيةٍ الضّوضاء التّي تشتمل المكان: "ضعي هذا القناع على وجهكِ الجميل ،وإلاّ فإنّكِ ستصبحين فريسةً سهلةً للأرواح الشّريرة، وقِبلةً لها".

قالت له باضطرابٍ وخجلٍ: "ولكن ماذا عنكَ؟"

ابتسم ابتسامةً واسعةً تخلّلتْ وجهه الأسمر الجميل، وقال بحيويّةٍ، مرقّصاً يديه، ومتمايلاً يسرةً يمنةً على أنغام موسيقى المهرجان: "ما عليك مني".

- "ولكن كيف ؟ . . ."

قهقه قائلاً: "أنا الشّيطان نفسه . . ."

كانت تراقب جسده المشحون بحمّى الرّقص والغناء، كان وجهه في كلِّ الأماكن أنّى استدارتْ ونظرتْ، أصبح في المهرجان آلاف المحتفلين، ورائحة البصل وهو، شعرت بامتنانٍ خاصٍّ لحماتها التّي دفعتها إلى هذا المهرجان، تمايلت بهدوءٍ على أنغام الموسيقى، ثمّ استجاب جسدها بليونةٍ وطواعيّةٍ لرقصٍ رشيقٍ على خليطٍ من الموسيقى والتّرنيمات والصّيحات والضّحكات، والتحم جسدها بآلاف الأجساد الصّاخبة، ولكنّ وجهه العاري كان في كلِّ مكان.

بدأ المحتفلون طقوس دهن أجسادهم بماء البصل، انهمك الكلُّ في ذلك، وسرت في المكان ترنيمات سدنة وكهنة المعبد،فاجتاحت المحتفلين غيمةٌ غازيّةٌ من البصل، فشخصت الحلوق، ودمعت العيون، وانشغل الكلُّ بدموعهم المنسكبة، وبمخاطهم السائل، الكثير منهم مسح مخاطه ودموعه بكمِّ ثوبه، بعضٌ آخر كان أكثر حظّاً إذ امتلك مناديل ورقيّة استخدمها في مسح دموعه ومخاطه، أمّا هي فانبرتْ تراقب فنتازيّة دموع المهرجان، دون أن تندي من عينيها دمعة واحدة ، وإن تأزّم حلقومها بغاز البصل.

اقترب منها ،وهو ما زال مستمرّاً برقصه، مال إليها، وقال بهمس من يسأل عن ترنيمةٍ مقدّسةٍ: "يا جميلة لماذا لا أرى لكِ دموعاً، ألستِ من بني البشر؟ ألا يريق البصل دموع عينيكِ السّاحرتين ؟" ابتسمت له، وقالت بطفوليّةٍ مدافعةً عن نفسها: "عيناي لا تدمعان أبداً من البصل ، أمّي تقول أنّ جدّتي كحّلتني

بماء البصل بعد ولادتي بلحظاتٍ، ومنذ ذلك الوقت بتُّ لا أتأثّر بغاز البصل،ولا تدمع عيناي بسببه".

دنا خطوةً أخرى منها، وقال بهمسٍ عذبٍ: "فقط؟!"

- "فقط !!"

التقت عيناهما في لحظةِ انبهارٍ غريب، كأن بريقاً أليفاً يسكنهما، لا دموع ولا تهيّج.

قال بعذوبةٍ محتجّة: "ولكنّكَ أيضاً لا تبكي من البصل . . ."

ابتسم وقال لها: "ذلك لأنني الشّيطان . . ."

- "وما الذي يدعو الشّيطان لحضور احتفالٍ كهذا؟!".
- "رغبته الجامحة في اختطاف حسناءٍ لا يبكيها البصل . . ."
- " . . . ولكنّني . . ."
- "ولكنّكِ تستهوين الشّيطان . . ."
- " وهو يستهويني . . ."
- "إذن أعطيني كفّكِ؟"
- "أيّهما؟!"
- "لا يهمّ . . ."

استمرَّ المهرجان إلى منتصف اللّيل، وخلّف آلافاً من العيون الدّمعة والأجساد ذات البشرة المتهيّجة، في الصّباح كان المحتفلون في بيوتهم يأخذون قِسطاً من النّوم بعد ليلةٍ طويلةٍ من السّهر، إلاّ الأرملة الحسناء التّي اختطفها الشّيطان . . .

المستأنس

لم تعجبه تلك القصة الخيالية التي قرأ فيها عن ذئبٍ طيب يتحوّل في كلّ ليلة اكتمال بدر إلى إنسان طيب، يُحسن إلى كلّ الناس، ويخفق قلبه بالحبّ الطاهر، ويحيط كلَّ معارفه بالرعاية، ويفاجئ الذئاب التي تعيش في حمأة الخوف والبطش بالأمن والسعادة، تقزّز بشدة من هذه القصة، ووضعها في أعلى رفٍّ من مكتبته؛ كي لا تمتّع أيَّ قارئ، فهو يكره أن يجد أحداً، أياً كان متعة من لدنه، ولو كانت متعة بمقدار تقزّز من قصة (المستأنس) التي فرغ منها للتو، وللحقيقة شعر بمقدار من الخوف يساوره للحظة تخيّل فيها أنّ أيّ ذئب معرضٌ لسبب أو لآخر ليغدو إنساناً حليقاً دون فراء متلبّد، أو مخالب جارحة ، أو حتى دون شهوة الدم التي تملأ

نفسه رغبةً كلما تذكرها.

وفي معرض الحديث عن شهوة الدم أحسّ برغبة جارفة لاحتساء دم جاره الذي اعتصره البارحة في كؤوس ثلّجها في الثلاجة، فهو يحبّ الدماء المثلجة بنكهة الزنجبيل، حتى ولو لم يكن عنده زنجبيل، فسيتخيل أنّ الدم بنكهته، لا سيما أنّه لا يريد أن يضيّع سعادته باحتساء هذا الدم، فقد ناله بعد عناء يوم طويل، فمنذ بدأ جاره السمين بمراقبته، والتضييق عليه في المرآب المشترك لهما، وفي ردّ دعواته، وفي مراقبة بيته ليل نهار، بدأ يشعر بشهوة خاصة نحو دمه، أراد أن يعتصره من كبده الذي يخيّل إليه أنّه كبير بمثل حجم جسده، ثرياً بالدم الحارّ المتدفّق، وكذلك كان، اعتصره بلا مبالاة، وسمح لفرائه القذر أن يغتسل بسيل منه، انساح على الأرض، جرف في طريقه الكثير من روث جاره، ثم انصبّ في بالوعة المطبخ، عندها خطر في باله أن يجمع بعضاً منه في قارورة، يدّخرها للحاجة، فهو حريصُ دائماً على قضية الدم الإضافي.

في الماضي لم يكن من هواة الدم، فقد كان يتقزّز من حرارته التي سرعان ما تغدو لُزوجة قابلة للمطّ، تلزق على الثياب كما البُزّاق، لكن مع أوّل مرة تذوقه فيها، غدا مشروبه المفضّل، هو يذكر أن ذئبته الجميلة التي عمل معها طويلاً في مكتب البلدية ، كانت رائدته إلى هذا المشروب السحري ، يومها حمل لها شعوراً غريباً اسمه حبّ ، هام بها ، وتمنّاها زوجة تشاركه متعة تذوق لحوم الأصدقاء الذين كان يتفنّن في

ذبحهم، وأكل لحومهم، لكنّها فاجأته بنظامها الغذائي الشاذ، إذ ادّعت أنّها من النباتيين، الذين يحرّمون اللحوم على أنفسهم، ويجدون متعة خاصة في الخضار والفواكه والبقول والمكسّرات، بل إنّها كانت تلحّ على رسم المستأنسين، تجد لذة في رسم أعضائهم الملساء التي تخلو من الفرو، تحدّق في عيونهم ذوات الأهداب الرقيقة، ترسم تموجات شعور رؤوسهم، تحلم بشوق بنظرات أعينهم التي فيها دفقة مقرفة من شيء اسمه الحبّ، تستغلّ اشتهاءه الحيواني لها؛ لتجبره على قبلة غريبة في الفم، قرأت يوماً عنها في أساطير المستأنسين، تقول إنّ فيها سحراً خاصاً، ووقعاً غريباً على الجسد والروح، ولكنّه يرفض أن يذعن لطقوسها الغريبة، فلقاء الجسد له تقاليده الذئبية التي لا يقبل بمقايضتها، ولو برضى تلك الذئبة الساحرة، يكفيه أن يضطر لأكل الخضار والفواكه كلما قابلها لينال رضاها العظيم.

لقد أوصلته إلى حافة الجنون لا سيما عندما رآها تبتذل طقوسها الغريبة ،وتتنازل عنها في حضن رئيس البلدية، لتنال منصباً جديداً، ليلتها راقب شخيرهما حتى النهاية، ثم انقض عليهما، قدّ لحمهما بشهية لم يعرفها من قبل إلا مرةً واحدة لن ينساها أبداً، ذلك عندما شوى لحم أخيه بعد أن جعله شرائح أشبعها دقاً وسحقاً، لعلّه كان يستحق ذلك ؛فقد كان مخلصاً لشيء عجيب اسمه وطن، بل كاد يقف في طريق نجاحه عندما فكّر بتقديم مساعدات صغيرة لسماسرة أصحاب عيون تتخفّى

وراء نظارات سوداء، ويحملون كتاباً مقدساً، فيه سِفْر كامل لرحيلهم الأكبر، ولعذابهم المدّعى، أحبّ فيهم نقودهم، وشدّة تمسّكهم بدعاية الشعب المختار، كم مرةّ قال لأخيه الذئبي الملعون الذي كان يرى فيه مخايل المستأنسين أنّ ما يفعله ليس خيانة بل مساعدة مأجورة ،إن شاء يستطيع أن يسمّيها استغلالاً وانتقاماً مالياً من الأعداء المفترضين، لكن أخاه صمّم على جدله البيزنطي، ونعته بالخائن، وكاد يلحق بجماعة من المستأنسين الذين يسكنون الجبال بعد أن لفظهم مجتمع الذئاب، فما كان في يده حيلة إزاء الخيار الدموي الذي اختاره، إذ وجد نفسه مدفوعاً إلى ذبحه وشيّه، وإطعام لحمه الغضّ ذي الجلد الملس لزبائنه المقدسين.

حاول طويلاً أن يشرح لأمّه ملابسات الحادث، لكنّها أبت أبداً الاقتناع، ووصفته بالدموي، مع أنّها من عشّاق الدّم، ألم تأكل جسد أبناء أخيها الأيتام،وتشرب دماءهم !؟ بعد أن حرمتهم من إرث أبيهم؟! و أنفقت جلّه على بناء المبرّات التي تحمل اسمها، وتؤطّر صورتها بإطارٍ ذهبي على بواباتها، في حين نفق أبناء أخيها الجراء الصغار جوعاً وبرداً بعد أن هجرتهم أمهم، ولحقت عواء ذئب قيل إنّ له فراء أشقر معقوصٌ كفراء قطة تركية مدلّلة.

أبرز لأمّه الكثير من الصور التي تظهر أخاه مستأنساً بملامح وقسمات بشرية مقيتة، وهو يشرب الشاي بكل وقاحة مع مستأنسي الجبل الذين أقرفوه بقصص وطنيتهم،

وبشعارات عقائدهم، لكنّها صمّت أذنيها دون كلامه، وعوت بحزن، إلى أن استعبرت، لأوّل مرة رأى الحزن في عينيها الحمراوين، بدأت ملامحها بالتبدّل، اختفى فروها الكثّ، وبرزت بشرتها الملساء، وغار حاجباها الأشيبان الكثيفا الشّعر، وجحظت عيناها ذاتا الدموع الآدمية التي حولتها من ذئب إلى مستأنس لعين، كان متأكداً من أنّها نهاية والدته، فلا مكان للمستأنسين في عقيدة الذئاب، كان عليه أن يصمّ قلبه دونها، أن ينكر وجودها، وإلاّ فسيكون صورة عنها، ومن يعلم فقد يتحوّل إلى مستأنس ملعون، الدم الفيصل الوحيد في قضيته، انتهز فرصة دموعها الطارئة، وانقضّ عليها، ومزّقها دون رحمة، وقدّم دمها الذي زهد به إلى إحدى مؤسسات الذئاب الرضع، ونسي ذكرى أمّ كان ابنها.

لكن أزمته عادت ،وتفاقمت من جديد، فقد أصيب لزمن طويل بحمى المستأنس، مع أنّه يَعدّ المستأنس أسطورة لا مكان لها في حياة الذئاب، ومع أنّ أحداً من الأطباء لم يجرؤ على أن يصارحه باسم مرضه، على الرغم من أنّ مطالعته الطويلة في أسفار الطب القديمة أكدّت وجود هكذا مرض، الذي يظهر في لحظة استيقاظ ضمير، وارتفاع درجة التعاطف، وتأزّم المشاعر، إلا أنّه كان متأكداً من أنّه مصاب بحمى المستأنس، فشعر فروه كان في تناقص واضح، ونزوعه عن الدم والقتل، وميله المرضي إلى مساعدة الآخرين، ورغبته الغريبة في قلب يحبّه، كانت مؤشراتٍ لا يُستهان بها في تشخيص مرضه، كان يعرف أنّ

علاجه أسهل بكثير من الإصابة به، يكفيه أن يقترف خطيئة ما ليشفى من مرضه، لكن شيئاً في نفسه كان يستلذ هذا المرض، وهذا العارض في حدّ ذاته مؤشر لا يُستهان به على أن مرضه بات يدنو من الحالات النهائية، التي قد تنتهي بالموت، فهو ما كان يستطيع أن يتحمل وطأة الإنسانية التي ستصيبه، وإن استطاع فما كان مجتمع الذئاب ليقبل به، لا بدَّ أنهم سيطاردونه في الجبال، بل وفي الأسواق إن أفلح بالتنكّر، ثم يطلقون النار عليه، أو يزجّون به في زنزانة مظلمة تحت الأرض في أحسن التخمينات.

لكن لؤم الذئاب تدخّل – ولحسن الحظ – في الوقت المناسب، فقد استعاد كامل صحته، ووافر ذئبيته بمجرد أن شارك في التستّر على تلك المذبحة المثيرة التي أبيد فيها آلاف الذئاب لصالح مشروعٍ سكني استيطاني للذئاب الشُهل التي أغارت على البلاد زرافاتٍ وقطعانا، وبعد هذه المشاركة الميمونة عاد إلى سابق عهده بمعيّة ثروة جديدة أنفق جلّها على اللحم البشري الذي بات يهواه بشدة، وتستفزه قرمته كثيراً، فهو يحبّ اللحم بكلّ أشكاله، يحبه مأكولاً، أو مهصوراً، أو في فراشه، بل إنّ شهوته امتدت حتى إلى لحم ابنه البكر الذي ما كادت تلوح عليه أوّل مخايل المستأنس حتى بادر بتقطيعه إرباً، لكن شهوته التي اضطربت دون مبرر في تلك اللحظة، أملت عليه أن يصدّ عن أكله، وإن لم يُضعْ متعته فرمه شرائح صغيرة، ثم تكويمه في كيس قمامة، والتطويح به بعيداً.

لكن حالة الحُمى الملعونة عادت ،وهاجمته من جديد، بل إنّه أصيب بحالات مؤقتة تدفعه إلى انفصام المستأنس، فغدا للحظاتٍ حرجة إنساناً كاملاً بدمه ولحمه وقلبه، وكاد يعلق في ذلك، إلا أنّ أفول القمر البدر، وتدخّل الجهات الطبية حالت دون استمرار ذلك، فقد أقام طويلاً في مصحة راقية وسرية في بلد ما، يتعالج من مرضه الفظيع، الذي كان إذا أصابته نوباته تحوّل إلى إنسان بطباعٍ دمثة، وروحٍ طيبةٍ، وقلب يخفق بحبّ كلّ البشر، ولكن من حسن حظّه سرعان ما شفي من مرضه، وإن بقي عرضة للانفصام في أيّ لحظة، وفي سبيل الاحتياط لعدم حدوث ذلك، كان عليه أن يبتلع مئات الأقراص المضادّة يومياً، وإلى جانبها لتر دم طازج؛ إذ كان له تأثير رائع على تخدير مشاعره، وكبت إنسانيته، وتأجيج ذئبيته.

كان يعلم أنّه تحت مراقبة حثيثة من أخطر الجهات الذئبية سريةً وفتكاً، وما كان ليبالي في ذلك، فهو يعلم علم اليقين أنّ ذئبيته سوف تنتصر دون شك على انفصام المستأنسين الذي يهدّد حياته، ويروع أمن مجتمع الذئاب، وما خال أبداً أنّ المرض سيعاوده بكل تجلياته مع تلك المستانسة الجميلة التي أُوكل إليه أمر تصفيتها بعد أن سُجنت زمناً في ذات السرداب الذي سُجن فيه أياماُ في زمن انفصامه المرضي، عندها كان مشغولاً عنها بنوبات مرضه، وتأزمات امتساخه، وظنَّ أنّه قد نسيها بعد أن شُفي تماماً، لكن سحنتها الآدمية بقيت تلحّ على ذاكرته المشحونة بالدم والموت ، كانت لحظة شهية نقية بين

أرتالٍ من القتلى والمسحوقين، عيناها الفيروزيتان فيهما أمنٌ لم يعرفه من قبل، جسدها الملس ذو المسام النظيفة عبق بشهوة في أنفه، عندما مسّد على جسدها الصغير المكوّم على الأرض بعد رحلة عذاب طويلة شعر باطمئنان وشهوة لم يعرفهما من قبل، ليست شهوة للّحم وللدم، بل شهوة للروح والقلب، ثم غابت، وها قد عادت الآن صورة في جيبه، يحدّق فيها كثيراً، يغفو وهو يتأمل ابتسامتها الغير ذئبية، ويؤجل يوماً بعد آخر موعد قتلها، إذ يؤمل نفسه بها، الإنسانة لا الذئبة.

عليه أن يفجّر رأسها بمسدسه، هكذا يدسّ فوهته في مؤخرة جمجمتها، ثم يدوس على الزناد، فيتطاير رأسها شظايا، وتنتهي مهمته، ويرضي الزبانية الذين يعمل معهم، ويجهض بموتها أحد رموز ثورة المستأنسين. كانت تغطّ في نومٍ عميق عندما انسلّ، ودخل إلىحجرة نومها، جسدها الصغير يتكوّر على يسار السرير، القمر البدر يتساقط نوراً على صفحة وجهها متسللاً إلى غرفتها من النافذة المشرعة، يهيئ المسدس؛ ليؤدي مهمته، ولينسلّ هارباً، لكن قسماتها الغارقة في خصل شعرها المبعثر تشلّ إرادته، بعض نقاط العرق تتنزّ من جبهتها، يمدّ يده ذات المخالب إلى جبهتها، وبرقةٍ لم يألفها في نفسه يمسح قطرات عرقها،يقرّب يده الحانية من فمه، يلحس ما علق فيها من عرق،طعمه مِزٌ مِلْح، لكنّه يشتهيه،يقدّر أنّ سمك الغطاء الذي تتدثّر به هو السبب في حرارة جسدها وفي تعرّقه،بيد حانية يبعده عنها، فينكشف جسدها الصغير المتهدّل في منامةٍ

وردية مزركشة، قدماها الصغيرتان جُلّ ما يلفت نظره، يجلس قريباً منها إلى يمين السرير، ظهره يلامس جسدها، حرارته تتسلّل إليه، تكاد تنقلب على شقّها الآخر عندما يصدّها ظهره، ويمنعها من الحركة، تفتح عينيها بصعوبة، تجده أمامها، تتربّع في فراشها غير مفزوعة ، كأنّها كانت في انتظاره، تنظر إليه، وتقول بلا مبالاة: "إذن ها قد جئت لقتلي."

- "بالضبط."
- "وما الذي يحول دون أن تفعل ذلك؟"
- "أنتِ".
- "لم أفهم!!"
- "أظن أنّني أحبّك!!"
- "ولكن قلوب الذئاب لا تعرف الحبّ!!"
- "ولذلك أنا متأكدٌ من أنّني أحبّك."
- "ولكن..."
- "أحبّك."
- ....
- "أحبّك"
- "أنت الليلة مختلف، في قسماتك شيء لا أفهمه، هل أنت؟!.."

- "نعم أنا منذ الليلة مستأنس، لا يمكن أن يحوي قلب ذئب حبّاً مثل حبي، لا بدّ أنّ حبّك مسخ وجودي"
- " لا غرو في ذلك ،فقمر الليلة بدر."
- " ليس اكتمال البدر هو قوة المستأنسين، بل قلوبهم، واكتمال مشاعرهم."
- "يبدو أنّك غدوت حقاً مستأنساً."
- "ألم أقل لك إنّني أحبّك.."
- "لكني لم أقل لك بعد إنّي أبادلك حبّاً بحبّ"
- " إذن ماذا تريدين أن تقولي؟"
- "لعلّي أرغب في أن أقول لك إنّي أبادلك حبّاً بعشق..."
- "أحقاً ما تقولين؟!"
- ...

لم تجب؛ لأنَّ رصاصة ما حوّلت رأسها ورأسه إلى شظايا ملتهبة، وأصبحا خبراً في كلّ الصحف المحلية التي علّقت على خبر موتهما بعبارة " مقتل مستأنسين في ملابسات غريبة، التحقيق ما زال جارياً فيها" . في حين كتبت صحف عالمية خبراً على الصفحة الأولى بعنوان " مقتل إرهابيين، يشكّ في أنّهما مستأنسان في حادثةٍ إرهابية آثمة ".

بحيرة السّاج

" الله هو الحبّ الأعظم، الحبّ هو الله، الله يأمر بالحبّ، والحبّ يقود إلى اكتشاف عظمة وجبروت وقدرة الله، سبحانه فهو مصرّف القلوب"، هذه كلمات نوح بن لامك التّي دعاها فيها إلى استشراف نور الرّبّ، تسلّلت كلماته إلى قلبها المسكون بحب عوج بن عنق، داعب سحرها وشائجه المرهفة ورقاقته الشّفّافة حيث الحياة والرّوح، واستوطنت ما بين القلب وحشاياه حيث يكمن حبّ عوج بن عنق، ويفجّر فيها ينبوعاً من الحبّ يكفي لأن يروي كلّ عشّاق الدّنيا .

ما كان ليملك رجلٌ دجالٌ طلاسم الحياة والأرض، أنّى له أن يحيكَ كلمات السّعادة الكبرى؟؟ أنّى له أن يعرف أنّ الله حبّ، وأنّ الحبّ هو الله، لو لم يكن نبيّا؟ لقد آمن قلبها به منذ

أن سمعت كلماته، التّي أطفأت عذاباتها، وأذاقتها حلاوة اليقين، منذ أن وُلدتْ وهي تسمع قومها يصفون ذلك الرّجل المكتهل بالكاذب والمجنون، ولكنّها رأت في كلماته ما لم تره في عينَيْ بشر، رأت الصّدق، ورأت ناراً من نورٍ متّقدة، فآمنتْ به، وكفرت بطواغيت قومها، شدّت بيدَيْها على قلبها الذّي يسكنه حبّان: حبّ الله وحبّ عوج، وتحسّسته بحبٍّ وسعادة، وبحرص من يملك كنزاً في صندوق، وصرخت بأعلى صوتها: "يا ودّ، يا سواع، يا يغوث، يا يعوق، يا نسر أنا أكفر بكم وأسبّكم، ما أنتم إلاّ أحجارٌ صمّاء، ليس لها قلب، لا تعرف وجيب قلب، ولا ترقّ لعاشق، ولا تهفو لمتيّم، أنا أكفر بكم، أسمعتم، أنا أؤمن بالله، أؤمن بالعزيز القهّار، أؤمن برمز الحبّ الأعظم، أنا مؤمنةٌ بربّ نوح، لتسقطي أيّتها اللآلهة الحمقاء السّماء كسفاً على رأسي، لتنتقمي لذُلِّكِ، لتنتصري لنفسكِ، أنّى لكِ؟ إنّكِ لستِ سوى حجارةٍ صمّاء، يا ربّ أنا مؤمنةٌ بكَ، مؤمنةٌ بحبّكَ الذّي شمل روحي، وأغاث ضياعي".

ردّدت أشجار غابة السّاج كلماتها، حملت الرّيح تحدّيها، انتظرت للحظةٍ بتحدٍّ لا يقل قوّةً وعنفواناً عن حبّها أن تسقط الآلهة الحمقاء السّماء كسفاً عليها، أو أن تغور بجسدها الثّائر العابث، ولكنّ ذلك لم يحدث، حفيف أشجار السّاج عزف بالطّمأنينة على قلبها، بعض شعرات رأسها تهادت مع نسيم الغابة، داعبت الشّعرات المتطايرة بكفِّ يدها، ثمّ ردّتها برقّةٍ إلى ما وراء أذنيها، وتنفّست الصّعداء ساخرةً من الآلهة

العاجزة، تنهّدت محدّثةً سكون الغابة: "كنتُ متأكّدةً أنّكِ أضعف من أن تثأري لنفسكِ، أنتِ آلهةٌ أكذوبة، أنتِ طاغوتٌ صنعه الشّيطان، أمّا قلبي فهو خالصٌ لله ."

"عوج . . . أين أنت؟! لِمَ تأخّرتَ؟ أنا أعشقكَ، هلمَّ إليَّ لتذوق معي حلاوة الإيمان، هلُمَّ إليَّ لنكن أوّل زوجٍ مؤمنٍ في أرض الكفر، هُلمَّ إليَّ ليبارك النّبيّ نوح حبّنا النّديّ ، أنا أعشقكَ، وأعشق الرّبّ حيث الحبّ . . . عوج . . . عوج . . .وج . . .ج".

طوّقت أشجار السّاج أمنيتها الحارّة، واستلقت عند أقدام الشّجرات التّي بلغت من العمر قرناً، مسّدت الأرض بظهرها الصّغير، وانفرجت يداها وقدماها بسكون من يطير فوق الشّمس، وانتظرت عوج، تابعتْ بعينَيْها أسراب الحمام البرّيّ تقطع سماء الغابة بتماوجاتٍ جماعيّةٍ فريدة، أسراب الحمام كانت تتناوب على كشف قرص الشّمس وإخفائه، ذلك الجبّار الذي يكسي ببريقه السّماويّ أعالي أغصان أشجار السّاج، فتظهر كما أعوادٍ من نور، كم تحبّ أشجار السّاج!! كم تحبّ هذه الغابة التّي تتربّع على هضبةٍ مهولةٍ دون باقي بقاع الدّنيا!! فهنا قابلت عوج لأوّل مرّة، كانت عندها طفلة لاهية، وكان شابّاً عاتياً كلحظة جنون، جاءت لتنصب أرجوحتها على أغصان شجرات السّاج، وجاء ليقطع أشجار السّاج نكايةً بنوح، الذّي زرع أشجار الغابة كلّها،وادّعى أنه فعل ذلك تنفيذاً لأمرٍ مقدّس، سخر النّاس من الأمر السّماويّ الغريب، أمّا نوح فهدّد بطوفانٍ قادم، وعقد عزمه على بناء سفينةٍ تحمل المؤمنين بربّه

إلى النّجاة، مهما كلّفه الأمر.

استمرّ نوحٌ في رعاية أشجار غابته ضارباً صفحاً عن الغمز و اللّمز وعن تندّرات القوم به، وسخريتهم من صيغه، أمّا هي فما كنت لتبالي بالعجوز المهيب الذّي يدّعي النّبوّة، ويزرع ربوة البلدة بالأشجار، بالتْ فقط بأرجوحتها التّي تنوي أن تنصبها على أعلى الأغصان لتتأرجح بين السّماء والأرض، لتكون عصفوراً آدميّاً في الهواء، أعدّت العدّة لتحقيق حلمها، حملت الحبال ،وانطلقت إلى أكبر شجرات الغابة، توقّعت أن ترى نوحاً، وأن تطلب منه إذناً للتّمتّع بغابته العجيبة، كانت مؤمنةً بلطفه، فهي ما رأته غاضباً ولا حانقاً يوماً إلاّ إذا كان على مرأى من فاحشةٍ يدّعي أنّها تغضب ربّه، ولكنّها لم تتوقّع أبداً أن تجد عوج أمامها، كانت تعرف اسمه الذّي يوقع الهلع في القلوب، فهو من شرّ النّاس، ومن أظلمهم، وكانت تعرف ملامحه القاسية الملتهبة بالغضب، فقد رأته يوماً يضرب رجلاً حدّ الموت في سوق المدينة لذنبٍ لا تعرفه، ولم يعنها أن تعرفه، فقد كان الهرب بعيداً هو من أهمّ أولويّاتها في تلك اللّحظة.

تجمّدت قدماها العاريتان عندما رأته يوشك أن يهوي بقدّومه العظيم على جذع أكبر شجرة؛ ليقصف شبابها، حدّثت نفسها بالهرب، ولكن الجذع ونصل القدّوم شلاّ إرادتها، تمدّد التّراخي إلى سائر جسدها، وانزلق الحبل من بين يديها، أحدث صوتاً رتيباً خشناً، لفت نظر عوج إليها ، كانت طفلةً أمام وحشٍ آدمي ، رأى في صمتها حديثاً عذباً، ولأوّل مرّةٍ

في حياته ألقى نظرةً في بحر عينَيْها، ليرى قاعهما الصّافي الذّي يمور بفراته الزّلال، قال لها بهدوءٍ بعيدٍ عن طبعه: "ماذا تفعلين هنا أيّتها الطّفلة الصّغيرة؟"

استجمعتْ شجاعتها الصّغيرة، وقالت باضطرابٍ ونقمة: "لماذا تريد أن تقطع هذه الشّجرة الجميلة؟"

قال ضاحكاً وقد حاصرته طفولتها البريئة بأسئلتها العذبة: "أنتِ لن تفهمي سبب ذلك . . ."

قالت بتحدٍّ جميل: "بل سأفهم".

قال وابتسامة عريضة تجتاح وجهه المقفر من أيّ ملمحٍ إنسانيٍّ: "إذن أعلمي أنّي سأقطعها نكايةً بنوح".

قالت بتعجّب، وهي تخطو خطوةً لا إراديّةً نحوه : "ولكنّي أحبّ هذه الشّجرة، وأريد أن أربط حبال أرجوحتي بأغصانها".

قال بلا مبالاةٍ مصطنعة غارقة في ابتسامة هادئة: "اذهبي، واربطيها على شجرةٍ أخرى، أمّا هذه فسأقطعها".

قالت باحتجاجٍ ظاهر: "ولكنّكَ ستقطع باقي الأشجار يوماً ما".

قال باهتمام: "ولماذا تظنّين أنّي سأفعل ذلك يوماً ما".

قالت هامسةً: "لأنّكَ شرير . . ."

قال ضاحكاً: "ومن قال لكِ أنّي شرير؟"

قالت بحزم قزمٍ مسحور: "كلّ من يقطع الأشجار شرير".

بهت عوج للحظة من كلمات الطّفلة، ثمّ انفجر ضاحكاً، مسّد على شعرها المسدل، ومدّ قامته الفارعة، وشدّ حبال أرجوحتها على أغصان الشّجرة الأطول في الغابة، وأرجحها حتّى نامتْ، ثمّ حملها مثل كيس صغير، وقطع بها التّلال حتّى أوصلها إلى حيث بيتها.

كانت تردّد أمام أترابها: "أنا أحبّ عوج، إنّه طيّب"، فينفر الأصدقاء خائفين، كانت تردّد أمام الأهل: "أنا أحبّ عوج، فهو طيّب"، فتجحظ العيون، وتجفّ الحلوق، وتأمرها الألسن همساً بالابتعاد عنه، فهو شريرٌ عاتٍ لا يرحم أحداً، يعيث فساداً في الأرض، لا طاقة لأحدٍ في صدّه، حتّى الآلهة عجزت عن أن تضع حدّاً له، فهو شرير أرهق النّاس، وأفسد الذّراري، "ولكنّي أحبّه، إنّه طيّب" كانت تجيب حائرةً بين ما تسمع وبين عطف يدَيْه اللّتَيْن تدفعان أرجوحتها طويلاً في كلّ غداة.

وكبرت أشجار السّاج، وكبرت معها، لكنّ أرجوحتها ما كبرتْ، بقيت معلّقة بين أغصان السّاج، تحتضن امرأةً ساحرةً، تظنّ نفسها طفلة، كلّما تقاذفها الهواء، وحلّقت بها الأرجوحة التّي يدفعها رجلٌ شرس، اعتاد أن ينير ظلماء حياته بضحكات امرأةٍ تشهق سعادةً وإثارةً كلّما دفعها دفعةً عظيمةً في الهواء.

وأصبحت أسمن من أن تحمل ، ولكنّه كان مصمّماً على أن يقطع بها طريق العودة محمولةً كلّ مساء سيراً على عادة

طفولتها، التّي بات يستشعر لها وقعاً غريباً على نفسه المثقلة بشرورها وآثامها .

كان فرداً ببوائقه وأحقاده أمام كلّ البشر، كان يحتقرهم جميعاً، ويبادلهم كرهاً بكره، أمّا هي فقد كانت الآدمي الوحيد الذّي قال له:"أحبّك"، قالها بكامل إرادته وبملء مداركه وحواسّه، فرد عليها حبها بكلمة:"أحبّكِ"، قهر كلّ غلّ السّنوات وحقدها ليطفئها عند رطوبة قدمّيْها، وقال:"أحبّكِ . . . أحبّكِ . . ."

وغدت الغابة عدنهم المقدّس، هناك كانت تدركه إنساناً، ويلفيها سعادةً، انتظرته دائماً بكلّ أشواق الدّنيا، لكنّ أشواقها هذا المساء تفوق عظم غابتها، انتظرته لتهديه هديّة العمر، ستهديه الإيمان، ستدعوه إلى الرّبّ، حبّها ردّ إليه ابتسامته، وحبّ الرّبّ سيردّ إليه وجوده وقلبه وكينونته، تخيّلت قلبه يمتلىء إيماناً، تخيّلت عينَيْه تفيضان نوراً، امتلأت غبطةً، وباتت تعدّ اللّحظات لتلقاه .

وكان اللّقاء، ودعته إلى الإيمان بربّ نوح، لكنّه أبى وجدّف واستكبر، وكان الحبّ في قلبه دون أن يقوى على إنارته بالإيمان، وتخاصما، وعاد كلٌّ منهما إلى بيته من دربٍ لا يلتقي مع درب الآخر .

وهجرا الغابة التّي غدت أخشاباً في سفينة نوح، كانت سفينةً عظيمة طولها ثمانين ذراعاً، ظاهرها وباطنها مطليّان

بالقار، ولها جؤجؤ أزور يشقّ الماء، جمع فيها نوحٌ من كلّ مخلوقٍ زوجَيْن، وجاء غضب السّماء أمطاراً تغرق الزّرع، وتتّوراً يفيض ماءً، ويتلف الأنفس، ويجتاح البيوت والجبال، ويسوّيها بالوحل، كانت لحظات رهيبة، الماء يبتلع الأرض بغضبٍ غاشم، الكفرة يدركون في لحظاتهم الأخيرة أن لا عاصم من الله، المؤمنون القلّة حصاد دعوة نوح التّي استمرّت لقرونٍ طويلةٍ يحزمون أنفسهم مطأطئي الرّأس أمام غضب الله، قانتي القلوب، يتسلّقون سلّم السّفينة التّي ستحملهم بعيداً، هي آخر من تسلّق السّلّم، الأمواج المتلاطمة تقفز بتحفّزٍ لكي تبتلعها، وأمطار السّماء العاصفة تثقل جسدها، وتتحدّى قوّتها، أيدي المؤمنين تمتدّ من أعلى ظهر السّفينة لتشدّها إلى سطح السّفينة، نوحٌ يأمرها بالتّماسكِ والسّرعة.

من لحظاتٍ ابتلع الموج (كنعان) بن نوح الذّي كان عزم والده وانصياعه لأوامر ربّه سدّاً منيعاً يمنعه من أن يذوب شفقةً على ابنه الكافر العاصي، ولكن أين عوج في هذه اللّحظات؟؟ من جديد صوت نوحٍ يأمرها بالتّمسّك والصّعود سريعاً إلى ظهر السّفينة، تنصاع للأوامر، لكنّ صوت عوج يملأ نفسها، كما يخترق صوت جلبة الأمواج، من نظرةٍ نصف ملتفّة تراه على أعلى أشجار السّاج الباقية بعد اجتثاث الغابة، التّي غدت بحيرةً مهولةً تضجّ بالغرقى.

لا تميّز غير اسمها من فوضى الكلمات التّي يزعق بها عوج، قد أنهار جبروته أمام يقين الموت، ماء الطّوفان يكاد يغمر

رأسه، تقول بعصبيّةٍ وانفعال: "أرجوكَ يا نوح أنقذه . . . "

يقول بانفعالٍ تجلّله دمعةٌ غامضة: "ولكنّه كافر، وهذه السّفينة للمؤمنين فقط".

- "ولكنّي أحبّه".
- "لكنّه كافر، ولا مكان للكافرين بيننا ".

كفّ نوحً تلمس كفّها أخيراً، يكاد جسده المعمّر يشدّها بقوّةٍ إلى سطح السّفينة، أذناها المشنّفتَان لا تدركان صوت عوج، تدرك بأسىً أنّ الطّوفان ابتلعه إلى الأبد، "فما قيمة الحياة دونه؟". تحدّث حطام روحها، تشدّ كفّها من كفٍّ نوح، وتنزلق في الأمواج التّي تبتلعها بنهمٍ، وتبتلع آخر إنسانٍ على وجه الأرض يقول: "عوج . . . أنا قادمة . . . أنا أحبّكَ".

قصَّةٌ طويلة

مرَّةٌ أخرى أهداه صديقه المفتون بالأدب مجموعةً قصصيَّةً لقاصٍّ مغمور لم يسمع به من قبل، كم مرَّةً قال لصديقه المهموس إنّه يكره كلّ قصص الدُّنيا وحكاياها! كم مرَّةً قال له إنّه مفتونٌ بالميكانيكا التِّي يحبُّها دون كلمات الدّنيا كلِّها، أمّا القصص والشّعر فهذه دنيا يمقتها، ولا يطيق ظلالها الرّتيبة، فهو يؤمن فقط بالعلم، ولا شيء غيره، ثمّ أعليه أن يعيد المرّة تلو الأخرى على مسامع صديقه البليد قائل: " إنّه بالكاد يرى، وأنّه لا يستطيع مطالعة أيّ كتابٍ بسبب مرضه!" حتّى ولو زعق بملء صوته بكلِّ هذه الحقائق،فما يظنُّ أنّ صديقه سيسمعه،بل سيظلُّ يمطره بهداياه الورقيّة المقيتة،ماذا "لو ألقيتُ بهذه المجموعة القصصيّة من نافذة شقَّتي؟" سأل نفسه بضحكة

ثعلب، "ولكن قد تقع على رأس أحدهم فتشجَّه" ، "أيّ الرّجال الذّين لا يعرفون معنى الملل أو التّعب الذّي كتبها؟" سأل نفسه من جديد، ثمَّ ابتسم قائلاً: "لا بدَّ أنّه مجنون . . . كصديقي مثلاً". إذن سيمزّقه، ويطيِّره فتاتاً من نافذة شرفته ليهويَ سبعة طوابق على الأرض. "ولكن هكذا سلوك سيتسبب في اتّساخ المكان." قال متراجعاً بخجلٍ عن قراره المتهوّر .

حمل المجموعة القصصيّة على هون، وحار أين يدسُّها، لتتوارى عن طريقه، حدَّق جهده في صفحة الغلاف لكي يقرأ اسم المؤلِّف، ولكنَّه عجز عن ذلك، فقد كانت الكلمات ومضاتٍ خافتةٍ تتراقص بخبثٍ أمام ناظرَيْه، فتزيغ دون أن يدرك معناها ، دعاه الفضول إلى أن يخالف وصيَّة طبيب العيون، و إلى أن يلبس عدسات النَّظر، حتَّى ولو استمرَّت في تجريح قرنيّتَيْه، وفي إيذاء بصره، فقد أصبح الوضع لا يطاق، منذ أن أصيبت عيناه بداء القرنيَّة المخروطيَّة، والعالم يتراجع في عينَيْه إلى الخلف، ويبدو أصغر وأبعد، حتَّى غدا نقطاً باهتةً متراقصةً بالكاد يدركها، النّور وحده هو من يتسلَّل بلينٍ ويسرٍ إلى عينَيْه، دون أن يحدّق فيه بقوَّة، ودون أن يُصرَّ جفنَيْه ليراه بصعوبة، عجز الطّبّ عن أن ينقذه ممّا هو فيه، واستحالت العدستان الطّبيّتان قدرةً سحريّةً تعيد إليه النّظر ليرى بهما، وليواري وراءهما عينَيْن كاد النّور يفارقهما ،وكادتْ تنسيه كذلك مأساته التّي لازمته منذ أن كان على أبواب التَّخرُّج في الجامعة، لكن التَّهيج الذّي أصاب قرنيَّتَيْه منذ أسابيع استولد

المأساة في نفسه من جديد، واجترَّ آلامه وحيرته مرَّةً أخرى، وابتعثها من التَّناسي، لزم البيت طويلاً في الآونة الأخيرة على أمل أن يشفى من التَّهيُّجات، وأن تقبل أنسجة عينَيْه بالعدستَيْن اللاّصقتَيْن من جديد، ليبعد شبح عمليّة زراعة القرنيَّتَيْن عن عقله.

لكنَ الملل بدأ يدبُّ في لحظاته ودقائقه، استعرض جميع وسائل التَّسلية التّي تركن نفسه إليها، ولكنَّه استبعدها الواحدة تلو الأخرى؛ لأنّها كانت تحتاج إلى البصر، وهو يشفق على عينَيْه من أيِّ إجهادٍ مضاعف قد تبذلانه، وأخيراً وجد ضالَّته في رحلةٍ سياحيَّةً إلى أرض الشَّمس، استنكر الأصدقاء رحلةً كهذه في ظروفه الصّحيّة المتعثِّرة، ووجدوا قراره وسيلةً غير موفّقة لتكبُّد المزيد من النَّفقات الماديِّة التّي هو في غنىً عنها في ظلِّ ظروفه الصّحيَّة الرَّاهنة، وحاولوا ثنيه عن قراره بلفت نظره إلى عينَيْه اللَّتَيْن ستعيقان استمتاعه بأيِّ منظرٍ في هذه الرِّحلة، ولكنَّه قال غير مبالٍ: "لا يهم، حسبي أن أرى وميض أشعّة الشّمس الآسنة في الأفق، فضلاً عن أنِّي لا أستطيع أن أرى إلاّ إيَّاها اعتماداً على قرنيَّتَيَّ البائستَيْن.

أشفق الأصدقاء على صديقهم الذّي يطارد أشعة الشّمس المتمرّد الوحيد على بصره المنكفيء على ذاته، والمخترق الوحيد لحصار الظَّلام، وأحسنوا إذ أجادوا إخفاء شفقتهم التّي لا ترضي جموح روحه، ولا عزَّة نفسه، وكانوا في وداعه في محطَّة الحافلات ، ملوِّحين له بحرارةٍ بأيديهم مودِّعين

ابتسامته الطّفوليّة المتعالية على انكساراته، مع أنّهم كانوا يعلمون تماماً أنّه لن يرى أيديهم التّي تصكّ الهواء ملوِّحةً بحرارةٍ مهما اجتهدوا في ذلك، ومهما بذل في سبيل ذلك من صَمّ عينَيْه حدّ الإقفال، وإجهاد قرنيّتَيْه، فهو لن يرى أبداً من هكذا مسافةٍ كبيرةٍ، حسبه متر أو نصف متر يرى عبرهما.

غابت ابتسامته مع الحافلة المبتعدة، وأقفل زجاج النّافذة، بعد أن أيقن انّه أصبح في مسافةٍ لا تسمح لأصدقائه برؤيته، أرخى ظهره الذّي غار في مقعد الحافلة الوثير، كانت الحافلة مكتظَّةً بالسافرين الباحثين عن المتعة والتّسلية، إلاّ المقعد الملاصق له، فقد كان شاغراً وحيداً، أسعده ذلك، وضع فيه المجموعة القصصيّة التّي أهداها صديقه له ومحفظةً جلديّةً، وغاب في سِنَةٍ لذيذةٍ مبعثها اهتزازات الحافلة الرّتيبة، وحرارة الشّمس التّي غمرت وجهه، لا سيّما أنّه يواجهها تماماً في مقعده الذّي يحتلُّ مقدّمة الحافلة.

في غفوته القصيرة تلك رأى عشرات النّساء اللّواتي حفظ قسماتهنّ عن ظهر قلب أيّام كان في كامل قدرته الإبصاريّة، رأى قريباته وجاراته وزميلاته في الدّراسة وزوجات الأصدقاء، بل حتّى أنّه رأى وجوه نساءٍ عاكسهنّ في ما مضى في الشّوارع والتّجمّعات العامّة تفرّس في وجوههنّ وفي أجسادهنّ ما وسعه التّفرّس ، انزلق بعينَيْه في كلِّ انحناءةٍ في قسماتهنّ ، داعب باشتهاءٍ كلّ إطلالةٍ لهنّ ، استذكر بوجوههنّ كلّ عالم المرأة

الذّي بات يدركه أصواتاً وأنفاساً وروائح، ويُحَرّم عليه أن يعرفه لمساً أو نظراً، اجتهد ليرى وجه حبيبته الغادرة التّي هجرته بعد أن غدا مريضاً مهدّداً بالعمى، ذهبتْ إلى رجلٍ غيره يملك عينَيْن صقريّتَيْن، وقلباً زجاجيّاً، تمنّى بحقٍّ أن يرى وجهها فقد كان على الرغم من غدرها جميلاً رُسم بلحظة تجلٍّ، ولكن عبثاً كانت آماله، فوجهها الغادر غاب في حين حضرت وجوه نساء الأرض قاطبةً، لكنّ صوتها ذا الدّلال المصطنع بإتقانٍ وحِرَفِيّة لازم وجوه نسائه، وطغى على كلماتهنّ، واحتوى كلّ جلبتهنّ، تلألأ صوتها طويلاً في ظلام عينَيْه اللّتين تخترق أشعّة الشّمس إغفاءتَيْهما، ومن ثم غاب عندما غاب دفء الشّمس ، شعر ببرودة جهاز المكيّف تلفح وجهه، استيقظ، واعتدل في مقعده، ومدّ يده متثائباً إلى الكرسيِّ المجاور، ليتأكّد من وجود المجموعة القصصيّة ومحفظته الجلديّة التّي يحمل فيها بعض الأوراق الثّبوتيّة المهمّة، فوجد المحفظة والمجموعة القصصيّة، وكاد يمسّد عليهما، إلاّ أنّ صاعقة المفاجأة أربكته، فقد أدرك أنّهما في حضنٍ ساخنٍ، أيقن من اضطراب صاحبته ومن ليونة حركته، أنّه حضن امرأة، قال بتلعثمٍ وهو يتلقّى المحفظة والمجموعة اللّتين دفعتا برقّةٍ إلى حضنه: "أنا آسف . . . يبدو أنّي قد ذهبتُ في سِنَةٍ طويلة".

ردّ صوتٌ أنثويٌّ بعربيّةٍ فصيحةٍ يعلو مخارج بعض حروفها اضطراب اللّكنة، وعدم دقّة الصّوت: "يبدو أنّه كان نوماً سعيداً".

- "لماذا تظنّين أنّه كان كذلك؟"
- "لقد كان على وجهكَ ابتسامةٌ لم تفارقه أبداً!"
- "حقّاً!! كنتُ أظنّ أنّ لوجهي سحنة تكشيرةٍ وتقطّب حاجبين لا يفارقانه أبداً!"

علت نبرة ساحرة في صوتها مردّها إلى ضحكة صغيرةٍ وقالت: "إذن عليكَ أن تغيّر فكرتكَ عن نفسكَ، فأنتَ تملك ابتسامةً ملائكيّةً في نومكَ".

- "أشكركِ ."

وساد صمتٌ قصير، سمح له أن يتفرّس في ملامحها التّي كانت قريبةً منه حدّ الالتصاق، بشرتها السّمراء، وجسدها الصّغير، وشعرها المعقوف على شكل ذنبة فرس يوحيان بأنّها عربيّة، لكنّ لهجتها، ولغتها الفصحى، واضطراب مخارج الحروف عندها يؤكّدان أنّها غير عربيّة. قرّر أن ينقل هذا الحديث الذّي يدور في رأسه إلى فمه، لعلّه يكون منطلقاً حسناً ليستأنف الحديث الممتع الذّي انقطع منذ دقائق، وحسبه أنّه لا يجد موضوعاً آخر يحدّثها به، مع أنّ رأسه يضُجّ بآلاف الفكر التّي يأبى لسانه أن يترجمها إلى جملةٍ مفيدةٍ واحدةٍ، يستهلّ بها سيل حديثٍ ممتعٍ يتمنّاه معها، لعلّه يقطع به وحدة سفره. قال لها وهو يداعب بيدَيْه صفحات المجموعة القصصيّة: "يبدو أنّكَ حديثة تعلّمٍ للعربيّة ؟ "

–"في الحقيقة أنا أتحدّث العربيّة منذ سنواتٍ طويلةٍ،

- بالتّحديد منذ أن بدأتُ العمل في سفارة بلادي في العاصمة، ولكنّني لا أزال ألاقي صعوباتٍ بها".
- "أعتقد أنّكِ تتحدّثينها بطلاقة باستثناء بعض مخارج الحروف التّي تحتاجين إلى إعادة توقّفٍ عند نطقها".
- "يبدو أنّي أصبحتُ في حاجةٍ حقيقيّةٍ إلى معلّم لغةٍ عربيّةٍ"
- "هل أفهم من ذلك أنّكِ تعلّمتِ العربيّة بجهدٍ ذاتيٍّ، وبدون معلّم؟"
- "بالضّبط، لقد تعلّمتها بالممارسة، وبذلك فأنا لا أعرف القراءة بالعربيّة".
- "مطلقاً؟"
- "خلا بعض الحروف التّي أخطئ في لفظ بعضها أحياناً، مثلاً هذا الكتاب الذّي معكَ".
- "أنّه مجموعةٌ قصصيّة أهدانيها صديقٌ عزيز".
- "لا أتوقّع أنّي أستطيع أن أقرأ عنوانه".
- "حاولي".
- "م . . م . . مك . . . لا أعرف بالتّحديد أيّ الحروف هي التّي بعد الميم أهي الياء أم الكاف، الحقيقة لا أستطيع التّمييز بدقّةٍ أيّ الحروف هي الموجودة هنا . . ."

قال بثقةٍ وهو يطالع صفحة المقدّمة، وكأنّه يقرأها مع أنّه كان عاجزاً تماماً عن رؤية العنوان: (مكانٌ في المستحيل)، هذا ما هو مكتوبٌ هنا، وهذا هو عنوان هذه المجموعة القصصيّة".

قالتْ بتحمّس: "يبدو أنّها مجموعةٌ قصصيّةٌ مثيرة". ردَّ باضطرابٍ يحاول أن يخفيه، فما كان يرغب في أن يفقد موضوعاً يثير اهتمامها بعد أن وجده صدفةً، ومن غير تدبير: "تعم إنّها مجموعةٌ قصصيّةٌ رائعة".

- "هل قرأتها كلّها؟"

- "نعم، لقد قرأتها كاملةً".

- "هل يمكنكَ أن تقرأ لي قصّةً منها، فأنا أستمتع بالقصص التّي أسمعها أكثر من تلك التّي أقرأها، ولا تنسى أنّني عاجزةٌ عن قراءة اللّغة العربيّة، إلاّ إذا كان في ذلك إزعاجٌ لكَ".

قال وقد أُسقط في يديه ، وقعد به لسانه دون أن يجد حيلةً مناسبةً: "بالعكس، يسعدني أن أفعل ذلك، ولكن ليس الآن، فأنا متعبٌ الآن، ما رأيكِ في أن نفعل ذلك عندما نصل إلى مقصدنا؟"

- "اتّفقنا . . . ولكن عمّا تتحدّث القصّة التّي ستقرأها لي؟"

- "تتحدّث عن رجلٍ يحلم بالمستحيل".

- "وهل وجده؟"
- "نعم".
- "كيف؟"
- "خمّني!!"
- "لا أستطيع التّخمين، هيّا قل لي كيف وجده، أصبح عندي فضولٌ لأسمعكَ تقرأ لي هذه القصّة . . ."
- "وأنا أصبح عندي فضولٌ لأقرأ لكِ هذه القصّة".
- "أهي قصّةٌ قصيرة؟"
- "نعم هي قصّةٌ قصيرة، لكنّها طويلة بعض الشّيء، أظنّ أنّها قصةٌ طويلة".
- "طويلةٌ إلى أيٍّ حدٍّ؟"

ضحكَ، وقال بزهو: "إلى حدٍّ أنّها قد تستهلك رحلتنا كلّها".

قالت بتعجّبٍ: "إذن هي ملحمةٌ تاريخيّة، وليست قصةً قصيرة!"

- "ألم أقل لكِ أنّها قصةٌ طويلة؟"
- "ولكنّها قصةٌ مسليّة، أليس كذلك؟"
- "يبدو أنّ كلينا يرجو ذلك".

كلاهما تمنّى قصّةً مسليةً طويلةً كانت أم قصيرة، عندما

وصلا إلى أرض الشّمس، أنبريا يحدّقان في قرص الشّمس الذّي يحتلُّ واجهة المشهد، كان قرصاً ذهبيّاً بوهجٍ برتقاليٍّ وبإطلالةٍ تكتسح كلّ الآتين، التقط بعض المسافرين صوراً لهذا القرص المتوهّج، في حين داهمت حرارة القرص أنعلة أحذيتهم التّي التصقت بالأرض السّخينة، وكادت تذيب جلود أقدامهم.

لم يستطع أحدٌ أن يتحدّى وهج الشّمس بنظرةٍ محدّقةٍ لأكثر من ثوانٍ متهوّرة إلاّ هو، فقد حدّق لدقائق في قرص الشّمس التّي باتت في عينَيْه، أمكنه بفضل وهجها الذّي يغمر وجه أن يتفرّس في سمرة المسافرة معه،سمرتها رقيقة وجذّابة، لا تملك عينين ساحرتين، ولا ملامح فاتنة، لكنّ انسيابيّة قسماتها، وبساطة زينتها تضفي عليها رونقاً خاصّاً يدعو المرء إلى التّفكير في الأنوثة الرّائعة التّي تبتعد عن الجمال الصّاخب والحضور الحارق، هي أنوثةٌ رقيقة، وحسب. قالت له، وهي تحدّق في قسماته المستسلمة بشهوةٍ لأشعّة الشّمس التّي يقابلها بوجهه البيضاويّ: "قلتَ لي ما اسم المجموعة؟"

- "مكانٌ في المستحيل".
- "أيمكن أن يكون هذا المكان السّاحر هو المستحيل؟"
- "المستحيل يمكن أن يكون في أيّ مكان".
- "أيمكن أن يكون لقاؤنا مستحيلاً؟"
- "فقط عندما نفترق يصبح المستحيل بعينه، أمّا الآن فهو الحقيقة الأكيدة".

- "ألا يمكن أن يكون لقاؤنا بدايةً للقاءٍ لا يعرف المستحيل؟"
- "ولماذا تريدين أن ينتهي لقاؤنا بغير المستحيل؟"
- "لا أعرف، لكنّ هذه الشّمس، وهذه الأرض، وأنتَ ذكّرتموني جميعاً بشيءٍ كدتُ أنساه".
- "ما هو ذلك الشّيء الذّي ذكرناكِ به بعد أن كدتِ تنسيه؟"
- "ذكّرتموني بشهوة القصّة، بتُّ أحلم بسماع قصّة، كأنّي أميرة مسجونة في قارورة، وكلمة السّرّ لإخراجها هي قصة تفكّ سحرها، وتعيدها إلى سابق شأنها".

قال بفضول: "أيّ القصص تعنين؟"

- "لا أعرف بالتّحديد، ولكنّي أحلم بأن تقصّ عليَّ في هذه اللّيلة بالذّات قصّة المستحيل، التّي ستفكّ المستحيل، وتعيدني إلى سابق عهدي".

قال بفضول، وهو يدير ظهره للشّمس، ويرنو إلى الظّلام لمتابعة الرّحلة إلى الفندق: "وكيف كنتِ في سابق عهدكِ؟"

- "كنتُ بقلبٍ لا يكفُّ عن القرع . . . "
- "والآن؟"
- "أحلم بقلبي الأسطوريّ الذّي تقرع أجراسه في كلِّ ليلةٍ . . . "

- "يا للكِ من امرأة!!!"

وصلا إلى الفندق، وباتا فيه ليلةً وثلاث وست في غرفٍ متجاورة، لم تفكّر أبداً فيها في دعوته لقراءة القصّة على مسمعها، ولم يجرؤ هو على تذكيرها بذلك، فلم يكن ملكاً للقصص، ولا قادراً على القراءة، على الرّغم من أنّه كان يحمل معه عدستَيْن لاصقتَيْن في مائهما اللّزج، ويحتاط بهما، لاستخدامهما عند الحاجة إذا كان لا بدَّ له من أن يقرأ القصّة لها، شيءٌ في داخله كان يتمنّى ذلك، وإن كان يخشى أن تكون القصّة آخر مطافهما، فعليها يعتمد فكّ سحرها أو دوامه، تمنّى لو أنّه قرأ كلّ قصص الدّنيا، لينتقي منها قصّةً سحريّةً تفكّ سحرها العجيب، تساءل ألف مرّةٍ أيّ الكلمات هي التّي تحلم في أن يقولها، سأل نفسه لألف مرّةٍ أيّ القصص تحلم في أن يسردها، عندما كان يتأمّل كلماتها الرّقيقة، وولهها الشّديد في الطّبيعة والنّاس والحياة، كان يشعر بقنوطٍ شديد، فأيّ القصص سترضي امرأةً كهذه المرأة؟

قضى معها أيّاماً ساحرةً، زار معها كلّ شبرٍ من أرض الشّمس،لم يسمع أبداً كلمةً من كلمات الدّليل السّياحيّ الذّي رافقهم في الرّحلة، بل وهب كلّ اهتمامه وغاية سمعه لها هي، رأى أرض الشّمس بعينَيْها،الأماكن أدركها بانطباعاتها وتعليقاتها، شعر بحميميّةٍ مع كلِّ مكانٍ بفضل شهقاتها وضحكاتها ولمساتها،أدركَ وقع ووجيب ونفس كلّ لحظةٍ بحركة وانفعالات كفِّ يدها الذّي لم يفارقه للحظة واحدة، بعينَيْه لم يرَ

أيّ مكان، ولكنّه رأى كلّ الأماكن بعينَيْها، لم تفته ومضة رمشٍ منها، فقد كان يرى بعينَيْها، يعمى عندما تصمت، ينبهر عندما تنبهر، يُعجب عندما تعجب، يتمنّى عندما تتمنّى، التقط لها عشرات الصّور بآلة التّصوير الخاصّة بها وفق إحساسه بها، وليس وفق رؤيته لها، فقد كانت تتحوّل إلى ظلامٍ في عينَيْه بمجرّد ابتعادها لأكثر من مترٍ واحد، لحسن الحظّ أنّها ما كانت لتبتعد عنه أبداً إلاّ زمن التقاط صورةٍ لها، وبخلاف ذلك ، فقد كانت قرينته الإنسيّة التّي لا تفارقه أبداً .

وجاءت اللّيلة الأخيرة في الفندق قبل العودة إلى الوطن، لم تقل أنّها ستزوره في غرفته، ولم يدعها إلى ذلك، ولكنّه كان متأكّداً من أنّها ستأتي حاملةً معها المجموعة القصصيّة التّي احتفظت بها معها بناءً على رغبته لتطلب منه أن يقرأ لها القصّة القصيرة الطّويلة، كان بين نارين متأجّجتين توقدان مرجلاً ضخماً في رأسه المكتوي بحيرته، نارٌ تكويه ببحثه المقدّس عن قصّةٍ ترضيها ،وتفكّ سحرها، ونارٌ تدعوه إلى التحسّس كلّ قطعة أثاثٍ في الغرفة بحثاً عن العلبة الطّبيّة التّي يحتفظ بها بعدستَيْ النّظر اللاّصقتين، قطع هزيعاً من اللّيل وهو يحاول أن يطفئ ناريه، ولكن دون فائدة، فلا هو اهتدى إلى قصّته المفقودة، ولا هو وجد العلبة الطّبيّة، وهكذا أصبح أعمى تماماً دون قصّته المنقذة، شعر أنّه تعس لا يعرف من أيّ الاتّجاهات سينقضّ عليه طائر الرّخّ؛ ليغرز في جلده القاسي أظافره الحادّة، ويطير به بعيداً، إلى أرض الأحلام والتّمنّي .

"ولكن أين ذهبت العلبة الطّبيّة ؟وكيف سأتدبّر أموري دون العدستَيْن اللاّصقتَيْن؟!" توجّه إلى الهاتف الذّي أبصره كتلةً غامقةً متموّجة، رفع السّماعة، وأدار قرصه ليطلب حضور أيٍّ من خدم الغرف، لعلّه يساعده في إيجاد العلبة الطّبيّة، ولكنّ الطّرقات الرّقيقة على الباب، وأزيز الباب الذّي فُتح قبل أن يسأل الطّارق من يكون؟ أو قبل أن يطلب دخوله، جعلته يعيد السّماعة إلى مكانها، لقد كانت هي، جاءت في الموعد الذّي توقّعه بحدسه، قالت له بفرح طفلة: "لقد أحضرتُ المجموعة القصصيّة معي، هل ستقرأ لي القصّة هذه اللّيلة؟"

ردّ عليها وقد سبقته تنهيدة لم يملك أن يمنعها: "بالتّأكيد سأفعل، أرجوكِ تفضّلي بالجلوس".

- "أيمكنني أن أستلقي على السّرير؟ فأنا أحبّ أن أسمع القصص وأنا مستلقيةٌ في السّرير".

قال لها بتحرّجٍ واضحٍ يعلوه قلقٌ وفضول واضحين: "وهل اعتدتِ أن تُقصَّ عليكِ القصص في سريركِ؟"

- "أمّي فقط من كانت تفعل ذلك".

- "إذن ستكون منافستي صعبةً جدّاً".

- "بالتّأكيد، لأنّكَ لن تنافس قصص أمّي فقط، بل ستنافس كلّ رجال الدّنيا بقصّة . . ."

قال لها بنبرةٍ قلقة، وجفاف أجشّ قد تربّع في حلقه:

"وماذا لو أنّ رجال الدّنيا حضروا في لحظاتٍ، وغابت كلماتي؟"

انتظر إجابتها بقلق، مدّتْ إليه المجموعة القصصيّة، وضربتْ صفحاً عن الإجابة، وقالت بسطوة سيِّدة الدّهور التّي حفظت كلّ رجال الدّنيا، وخبرت أجمل الحكايا معهم: "اقرأ لي القصّة . . ."

- "ولكنّها طويلة جدّاً".
- "أمامنا اللّيل كلّه".
- "ألن تملّي؟ . . ."
- "ألن تدفعني إلى الملل؟"
- "أبداً".
- "إذن اقرأ".

تناول المجموعة القصصيّة بطقوس من يستلم رسالةً من الكاهن الأعظم، قلب صفحاتها بحركة من يطالع السطور، توقّف على صفحةٍ معيّنةٍ غير منتقاه، نظر في عينَيْها اللّتَيْن كانتا قريبتين منه حدّ التّآخي، وقال، سأقرأ لكِ قصّةً بعنوان (أرض الحكايا).

- "كلّي آذانٌ صاغية، وقلب مصغٍ كذلك . . ."

وبدأ بقراءة القصّة، قلب الصّفحة تلو الأخرى، حدّثها عن رجلٍ يحمل عشقاً عاتياً، حدّثها عن أرض الحكايا، حيث كلّ

حكايا البشر معلّقة في أصدافٍ شجريّة، كانت رحلةً طويلةً معنّاة التّي سردها على مسمعها حتّى وصل الرّجل إلى صدفته العجيبة، بتعويذةٍ اشتراها بألف جوهرةٍ فكّ طلسمها، انفتحت الصّدفة، ودوّن فيها حكاية عمره، وجد فيها السّمراء ذات القسمات الأنثويّة المرسومة بعنايةٍ إلهيّةٍ خاصّة، . . . وكان اللّقاء، وكانا . . .

سرد الكلمات، وكأنّه أمضى عمره ينقشها في قلبه، استولدها من ذهنه دون لحظة توقّفٍ أو برهة تقهقر، كانت تتابع يدَيْه المرتجفتَيْن اللّتَيْن تقلّبان أوراق القصّة بإشفاقٍ عذب، تابعت بولهٍ عينَيْه اللّتَيْن تتراقص فيهما دمعةٌ لا تدركُ كنهها، وهو يسلمهما إلى سطور القصّة، يتابعها سطراً سطراً، ويحوّلها كلماتٍ تنزل ندىً وسحراً على قلبها، فتفك إساره، وتطلقه حرّاً قويّاً عنيفاً، يدقّ لسارد القصّة دون رجال الدّنيا أجمعين، ألقت برأسها في حضنه الذّي اتّسع لها وللمجموعة القصصيّة، وإن كان بها أحفى، وبوجدها أسعد، كلّ كلمةٍ سمعتها منه جاءت منشولةً من بئر أمنياتها، كما جاءت من عزيف قلبه، ومن دنيا حكاياه وأحلامه، لا من سطور القصّة التّي ما كان يرى منها شيئاً، وإن كان يحسن التّمثيل ليجعلها تعتقد أنّه يقرأ ما خطّ فيها.

سريعاً طلع الفجر، بطيئاً طلع الفجر، ولكنّه طلع، وانتهى اللّيل، وما انتهت الحكاية، مع أنّها انتهت منذ زمنٍ طويل، حزما حقائبهما بتؤدةٍ حالمة، وغادرا الفندق بكفّين

متعاضدتَيْن، وبأحلامٍ لم يُصرّح بها بعد بصمت عينيهما، بعينَيْها اللّتَيْن لا تريان إلاّ إيّاه، وبعينَيْه اللّتَيْن لا يمكن أن تريا إلاّ إيّاها، ونسيا المجموعة القصصيّة التّي حار خادم الغرف ماذا يفعل بها، قلّبها يمنةً وشمالاً، ثمّ حملها إلى المشرف المسؤول عنه ليسأله ماذا يفعل بها؟

قال المسؤول بلا اهتمام: "أهو كتاب؟"

- "نعم، مكتوبٌ عليه (ميكانيكا آلات ثقيلة)"
- "أهو كتابٌ عن الميكانيكا؟"
- "أظنُّ ذلك!"
- "لو كان قصّةً لأغراني بأن أحتفظ به، ولكن بما أنّه كتابٌ في الميكانيكا فلا رغبة عندي في الاحتفاظ به".
- "إذن ماذا أفعل به؟"
- "ضعه مع العلبة الطّبيّة التّي وجدتها في نفس الغرفة في الأمانات لحين عودة صاحبها، وسؤاله عنهما".
- "أتعتقد أنهّ سيعود . . ."

قال المسؤول بلا اهتمام ،وهو يتناول الكتاب والعلبة الطّبيّة ليدسّهما في خزانة الأمانات: "لا أظنّ ذلك".

صانع الأحلام

أراد أن يكون استثنائيّاً، أراد أن يملك الدّنيا في لحظات، تمنّى أن يملك الشّهقات والزّفرات والخلجات، أراد أن يقبض على الرّيح، وأن يطوّع الأمنيات، وأن يصنع الأحلام، تمنّى أن يغدو للحظة خارج القاعدة والسّائد، طردته المدرسة عندما صرّح برغباته، ورقته أمّه بجلد ثعبان عندما سمعت كلامه الذّي أسمته هذيان، وحصل على بعثةٍ لدراسة الشّعوذة والسّحر في بلاد ما خلف البحر تقديراً لتفرّده، وتعاطفاً مع شخصيّته الفريدة، وأُنتدب ليمارس تعلّم وتعليم فنّ الإيحاء والتّحديق والتّخاطر في أرض الثّلج، ثمّ عيّن محاضراً لعلم التّلبيثائي في أرقى جامعات الدّنيا، حيث تُعطى المحاضرات على سطح الماء، وتطفو المباني على قامات الزبد، وتزرع

الأشجار فوق بحيرات الزّئبق، هناك غُسل بماء الورد، وضُمّخ بالمسك، وغدا في سنواتٍ قليلة عميد تلك الجامعة، فقد بهر جهابذة العلم بذكائه، وألجم الحاسدين –وقد كانوا كثراً– بإنجازه المبهر الذّي سُجّل في سفر منجزات حضارة البشريّة، وجعله من الخالدين في تاريخ بلاد الثّلج، كيف ولا وقد استطاع أن يخترع تمتماتٍ سحريّة وتموّجاتٍ مغناطيسيّة قادرةٍ على الولوج بين العقل وإدراكه، وبين القلب وإحساسه، وبين الرّوح وخلجاتها، واستطاع باختراعه الفريد وبكلماته الاستثنائيّة أن يقلب تاريخ الأحلام، وأن يفتن العقول، وأن يصنع أحلاماً قادرةً على إنعاش النّفوس اليائسة، وبعث الأمل في الأرواح القانطة، وغدا الحلم على يدَيْه صنعةً فريدة يُبدع فيها، ويلقمها لحظةً هانئةً للبشريّة زائغة القلب والأمنيات، وغدا صانع الأحلام، الذّي يملك الأحلام، ولا يملك الحقائق.

استثمر اسمه وعلاقاته العلميّة رفيعة المستوى لكي يحصل على قروضٍ ماليّةٍ، استغلّها جميعاً في بناء مصنعٍ من قشور الورد، خصّصه لتصنيع الأحلام، شهدت أرض الصّقيع أكبر الحملات الدّعائيّة للتّرويج لأحلامه التّي تُصنع بفضل خبرته الاستثنائيّة، وإمكانيّاته الفريدة، وطاقته الرّوحيّة الجبّارة، في الأيّام الأولى من افتتاح مشروعه الطّريف، حصّل على آلاف الزّبائن وعلى الملايين من قطع الذّهب، ولكنّ الأسابيع التّالية جاءت قاسمةً لما بنى، مشتّتةً لما جمع، فقد انقطع النّاس عن شراء أحلامه الورديّة التّي خمروا لأيّامٍ طويلة في سحرها،

وكادوا يدمنونها حدّ الموت.اضطربت أحوال البلاد، وعمّ الكسل ،وتخيّل كلّ إنسانٍ أنّه أيّ إنسانٍ إلاّ نفسه، وغدت معضلة الإنسان الأولى هي أن يجد نفسه، وفي سبيل ذلك أضاع كلّ شيء. قال كلّ النّاس:" لا للأحلام". قالوها بملء أفواههم، وبكامل إرادتهم، وانحازت الدّولة إلى صفّ إرادتهم، وحرّمت صناعة الأحلام، كما حرّمت المتاجرة بها، وعدّتها ضمن دستورها المعدّل حقّ طبيعي ومقدّس للإنسان، لا يجوز المساس به، أو المساومة عليه، وعمّت البلاد حملة توعية كبيرة تدعو إلى الأحلام الطّبيعيّة؛ لأنّها أصدق وأجمل وأدوم، وحرّمت للأبد تجارة الأحلام، كما أُقفلت جميع أسواق الأحلام السّوداء.

وأُسقط في يدَيْ صانع الأحلام، وعاد من جديد عميداً لكليّةٍ ما في إحدى أعرق جامعات العالم، وأصبح من جديد لا يملك غير وظيفته التّي باتت مصدر رزقه الوحيد بعد أن أفلس، وبعد أن تفتّقت عليه جيوب الدّيون ،ليغدو مديناً عليه عشرات الالتزامات التّي ينوء دون تأديتها، فتجشّمت الهيئات العلميّة عبء سدّ جُلَ ديونه؛ تقديراً لعلمه، ولموهبته الفريدة، التّي هجرها هي الأخرى، ولجأ إلى تعاطي الأحلام الطّبيعيّة، وغدا حلمه الحقيقيّ الوحيد هو أن يعود إلى أرض وطنه، حيث معلّموه الذّين ما عرف يوماً طعم تشجيعهم، وحيث الأمّ التّي حاق بها الجهل، وحيث الأصدقاء الذّين يشبهون الأحلام بضبابية وجودهم .

وتحقّق حلمه، وعاد إلى الوطن الذّي قطع الطّريق إليه

محتاراً أيّ الأيدي عليه أن يصافح أوّلاً؟ وأيّ دعوات العمل سيقبل؟ وأيّها سيرفض؟ وحضّر من باب الاحتياط كلمات الاعتذار التّي سيبث بها إلى الجهات التّي سيستثنيها من قائمة زيارته، فضلاً عن كلمة الشّكر التّي سيلقيها في أوّل مؤتمرٍ صحفيٍّ سيُعقد له في أرض وطنه، ولأنّ خطّه غير واضح، وكثيراً ما تُلبس عليه بعض الحروف عند قراءتها ،فقد قام بطباعة كلمته على الآلة الكاتبة وبخطٍّ واضحٍ عريض، كما استنسخ نسخاً من خطابه ؛ ليعطيها للصّحفيّين الذّين يفترض أنّهم سيحضرون المؤتمر الصّحفي الذّي سيُعقد له.

في المطار لم يجد إلاّ أباه وأخاه وزوجة أخيه ورهطٌ من الشّباب قيل إنّهم حفدةٌ وأنسباء، في حين غابت أمّه التّي ابتلعها الموت، ولم يتوقّع بالطّبع أن تحضر حبيبته التّي هجرها منذ دهر، فلا بدّ أنّها قد تزوّجت الآن، وأصبحت أمّ أبناء وبنين، بل لعلّها نسيت أنّها عرفته في يومٍ من الأيّام، وخلا الأقارب لم يحضر أحد، ولم يحضر صحفيّون يمثّلون أيّ حكومة. احتاج إلى أيّام ليدرك أ نّ لا مكان له في بلده، ففي بلده لا يؤمنون أصلاً بالأحلام، بل إنّه قد سمع من مصادر موثوقة أنّ الأحلام ممنوعةٌ بقرارٍ عسكريّ، ولكنّه كان مصمّماً على أن يصنع أحلاماً في بلده، ولو كانت أحلاماً صناعيّة، لا تعرف لذّة النّوم، ولا نشوة التمنّي، ولا احتراق الانتظار، ولا سعادة التّحقّق.

أحلامه كانت بقدر موهبته في صنعها، وإن لم تكن كافيةً

لتوفّر له لقمة العيش، تدبّر أمره ابتداءً بصنع حلم الشّبع، ثمّ بصنع حلم ما لذّ وطاب من الأغذية، ثمّ غلب الجوع أحلامه، واضطرّ كاسفاً آسفاً إلى أن يطوّف على المؤسّسات الحكوميّة والخاصّة باحثاً عن فرصة عملٍ تتناسب وقدراته، وتكافئ مواهبه، وترضي طموحه، وترحمه من مدّ يده إلى أبيه العجوز ليشاركه تقاعده الزّهيد.

توقّع وظيفةً حكوميّةً مرموقة، ثمّ انتظر وظيفةً مقبولة، ثمّ بات ينتظر أيّ وظيفة حتّى ولو لم تكن في مجال تخصّصه. لكنّ الدّولة الحريصة على استثمار طاقتها البشريّة نزعت إلى وضعه في أخطر مناصبها، بل إنّها استحدثت من أجله منصباً خطيراً يتناسب وكفاءاته، ففي جوٍّ من السّريّة التّي تتناسب مع المرحلة الرّاهنة العالقة منذ عقود أخطرته شفويّاً على لسان أحد عملائها الموثوق بهم أنّها قد عيّنته على الدّرجة السّابعة بوظيفة صانع أحلامٍ شعبيّة مع التّأكيد على حقّه في الحصول على جميع مستحقّات هذه الرّتبة الرّفيعة التّي على رأسها التّأمين الصّحيّ في الدّرجة سبعين في المستشفيات الوطنيّة التّي تنافس في أسعارها أعلى معاقل الصّحّة في العالم.

سعد صانع الأحلام بهذه الوظيفة إلى درجة أنّه أحسّ بذبحةٍ صدريّةٍ تلوح في الأفق، لكنّ سعادته عادت إلى نصابها، واستوت في سورتها عندما استلم مقاليد منصبه، وشرع في تأدية واجبه، ساءه في البداية أنّ عمله يزيد عن ساعات الدّوام الرّسميّة، لكنّه شعر بسعادةٍ عظيمةٍ عندما هُمس في أذنه بضرورة تلبية الواجب، لا سيّما أنّ من همس في

أذنيه كان يحمل سوطاً عتيداً، خال أنّه انقرض منذ زمنٍ طويل، إذ لم يَرَ مثله منذ أن هجر كتاتيب بلده، وطار إلى البعيد.

في البداية ظنّ أنّ وظيفته حكرٌ على قدراته وإمكانيّاته كما أُعلم سابقاً، وقد أسعده ذلك بمعنىً أو بآخر، بالتّحديد أشعره بنوعٍ هزيلٍ من التّفرّد، الذّي سرعان ما تلاشى عندما وجد الكثير من صانعي الأحلام يسبقونه في سلّمٍ وظيفيٍّ وطنيٍّ طويل، وإن بقي تميّزه وإبداعه في عمله عزاءه الوحيد في كربه المحيق.

أعلى سلّم صناعة الأحلام كان حلمه، وبذل في سبيل ذلك الكثير من التّجارب والأبحاث، وخلص إلى نتيجةٍ واحدة مفادها أنّ الأحلام تبقى أحلاماً، وأنّها ذات طبيعةٍ إدمانيّة، تذوب في الدّم، وتغدو مكوّناً من مكوّناته ، ثمّ سرعان ما تقتل، لذا فقد كتب في توصيةٍ سريّةٍ للغاية وجدت طريقها إلى قاعات الاجتماعات السّريّة أنّ الأحلام هي الأفيون المخدّر الذّي يحتاجه العوام، بل أكّد أنّ الحكومة ستثري على حساب الحالمين الذّين سيدفعون بسخاءٍ مقابل شراء الأحلام، ولو باعوا جلودهم وعظامهم في سبيل ذلك.

الحكومة لم تكافئه على دراسته الخطيرة، وإن صرفت له أحلاماً كثيرة، ودعته بتوصيةٍ ردّت بها على توصيته الخطيرة أن يصنع لنفسه أحلاماً ملوّنةً باذخةً، إلا أنّه لم يعمل بتوصية الحكومة حرصاً على جهده، وضنّاً بهدر المال العام على أحلام

خاصّة لا تعني الشّعب الحالم، في حين صرّح مصدرٌ ثرثار أنّ خزانة صانع الأحلام الشّعبيّة كانت تعجّ بالأحلام المسروقة.

امتلأت البلاد بالأحلام المصنوعة ذات الملمس النّاعم، والجرعة المخدّرة، والرّائحة المنعشة، افتُتن بها العامّة، وجعلوها منتجاً وطنيّاً، هتفوا باسمه في المظاهرات والاحتجاجات ومسيرات الولاء والتّأييد، وباتوا لا يفرّقون تماماً إن كانت أحلامهم المصنوعة حقيقة؟ أم الحقيقة هي أحلامهم؟ثم خلصوا في النهاية إلى أنّ الأمرين سواء.

أمّا صانع الأحلام الذّي تقاعد دون أن يتجاوز الدّرجة السّابعة بعد رحلةٍ قيل في إحدى الصّحف الوطنيّة أنّها حافلةٌ بالعطاء والتّضحية والإخلاص، فقد استثمر كلّ ما بقي من همّته وطموحه ونبوغه، وكانت في المحصّلة قليلة لا تكفي لتحريك دولاب عربةٍ قديمةٍ، في صنع حلمٍ ورديٍّ يجعله يحلم بأنّه ليس صانع أحلام؛ ليسعد ولو مرّةً واحدةً بنومٍ هانئٍ طويل، يذوق فيه طعم حلمٍ طبيعيٍّ، وعندما تعذّر عليه ذلك قبل مكرهاً وبناءً على المصلحة الوطنيّة كما أُعلم بكتابٍ حكوميٍّ شديد اللّهجة بحلمٍ مزيّف، أدمنه سريعاً، وأنساه أنّه قد كان في يومٍ من الأيّام قادراً على الحلم ،شأنه في ذلك شأن شعوبٍ من الحالمين .

آنسة قطة

السّاعة العاشرة مساءً هو وقت مشاهدة مسلسلها التّلفزيونيّ المفضّل، الذّي اعتادت أن تشاهده منذ أن كانت طفلة، في الماضي كانت مستعدّةً لإلقاء أيّ التزامٍ من التزامات اللّعب مع الأطفال وتأدية واجباتها المدرسيّة لمتابعة حلقاته الواحدة تلو الأخرى، لكن منذ أن كبرت، ومنذ أن توقّف عرض حلقاتٍ جديدةٍ من مسلسلها، عمدت إلى شراء حلقاته الكرتونيّة كاملةً، واعتادت أن تعيد مشاهدتها حلقةً إثر حلقة على أيّامٍ، وقد تحابي نفسها إذا كانت في حالةٍ نفسيّةٍ مثبطة،أو غير قادرةٍ على انتظار يومٍ آخر لتتابع إحدى المواقف المفصليّة الحادّة والمثيرة في برنامجها الكرتونيّ الذّي تحفظه عن ظهر قلب،فتحضر حلقتَيْن من حلقاته بدل واحدة، فهي لا

تفتأ تُثار وتُستفزّ وتجهش ببكاءٍ مريرٍ كلّما شاهدت تلك المواقف المتأزّمة والمحزنة التّي يمرّ أبطال مسلسلها الكرتونيّ المثير فيها.

تنهي عملها الشّاقّ، تقوم بآخر مراسلاتها الإليكترونيّة، قد تعرّج على بعض الأصدقاء، وقد تتناول العشاء مع بعضهم، وأحياناً قد تكون عضواً رئيساً في محاولةٍ للإيقاع بجسدها في أتون الجنس بحجّة الحبّ واللّقاء الأعظم، لكنّها تتجاوز كلّ ذلك، وتضرب صفحاً عنه، وتعود إلى بيتها تحمل الكثير من الأوراق التّي ما تزال في حاجةٍ إلى إلقاء نظرةٍ عليها، وكيساً ورقيّاً كبيراً، يحمل الكثير من المثلّجات الغازيّة، والمكسّرات المحمّصة، وبعض الفاكهة التّي لا تحبّها، ولكنّها تدّخرها لضيفٍ عابر، أو قريبٍ قد يعرّج عليها، وإن كانت تعلم أنّ ذلك قليلٌ ما يحدث، للدّقة هي لا تكاد تتذكّر متى حدثت زيارةٌ كهذه آخر مرّة، تدلف إلى بيتها على رؤوس أصابعها التّي تعاني من التّنفّخ بعد يوم عملٍ طويلٍ وشاقٍّ، تلبس طواله حذاءً كلاسيكيّا يناسب لباس عملها الرّسميّ حيث تقابل أرفع وأبرز الشّخصيّات السّياسيّة والأدبيّة، تخلع حذاءها بصعوبةٍ، تطوّح بحقيبة يدها لترسو على أقرب أريكة، تخلع معطفها ذا الماركة الإيطاليّة الفاخرة، تمدّ يدها إلى الحائط حيث القواطع الكهربائيّة، تدوس عليها بأناملها المحمرّة، فتضيء أنوار الصّالة وغرفة المعيشة.

تأخذ حمّامها سريعاً، تحضّر طعام العشاء الذّي غالباً ما

يتكوّن من الشّطائر والبوظة المطعّمة بالمكسّرات، تخفّض من صوت موسيقى الكاريبي التّي لا تحبّها أمّها في حين تعشق الموسيقى الفلكلوريّة الوطنيّة، والأهازيج الشّعبيّة، تأكل طعامها على عجل لتتابع مسلسلها الكرتونيّ المسجّل على أشرطة الفيديو، تستعجل أمّها أكثر من مرّة لتشاركها طعام العشاء الذّي كادت تنهيه، تغسل يديها، وترفع أطباق الطّعام، تكدّسها في حوض الغسيل، وتُأمّل نفسها بغسلها غداً، تطفئ ضوء المطبخ، وتتّجه إلى غرفة المعيشة، وهي تحمل كأس مثلّجاتٍ كبير، تتربّع على أريكتها المفضّلة قبالة التّلفاز مباشرةً بعد أن تدُسّ شريط الفيديو في جهاز العرض، تمسك بالمتّحكّم الإليكترونيّ، وتبدأ بمشاهدة مسلسلها المفضّل الذّي تشعر أنّ روحاً سعيدةً تسكنها كلّما جلست تتابعه، في لحظاتٍ تغدو طفلةً جذلى، تتمدّد على بطنها أمام التّلفاز، وترقّص قدميها في الهواء، وتلاحق بلعق لسانها سيل البوظة المنزلقة ذائبةً على جنبات مخروط البسكويت.

من جديد تجهر بصوتها داعيةً أمّها وأُختَيْها لمشاركتها متابعة برنامجها، مع أنّها تعلم أنّ أُختَيْها قد ملّتا تماماً من مشاهدة الحلقات المعادة، في حين أنّ أمّها ليست من هواة برامج الأطفال المتحرّكة بل من أنصار مسلسلات الدّراما العربيّة، ترقّص جسدها بوتيرةٍ هادئة ، وعيناها جاحظتان تتابعان باهتمامٍ أبطالها الكرتونيين ، ومن وقتٍ إلى آخر تستعجل أمّها بنبرةٍ طفوليّةٍ لحوحةٍ لا تخلو من تضجّرٍ وتأفّفٍ

في طقوسٍ لاهيةٍ ما تبدّلت أبداً.

كلّ شيءٍ في حياتها قد تغيّر، جلّه تغيّر إلى الأفضل، وبعضه أورثها انكساراتٍ ما عرفت لها جبراً، تبدّلت طقوس حياتها، ولعلّها تغيّرت هي أيضاً إلاّ طقوس مشاهدة مسلسلها التي ماعرفت تبدّلاً أو تحوّلاً منذ كانت طفلة، اعتادت أن تتابع بطل مسلسلها الوسيم الشّهم الذّي يشقّ أيّام حياته ،ويضني نفسه في مساعدة الآخرين، وفي ملاحقة الشّرير الذّي خطف حبيبته التّي لم تُعرض صورتها ولو مرّةً واحدةً في كلّ حلقات المسلسل الذّي كان ينتهي دائماً نهايةً مأساويّةً تفطر قلبها، فبطلها الوسيم ينتهي صريعاً أمام البرج الذّي تسكنه حبيبته دون أن يراها، لتستغرق هي في بكائية حزينة اعتادتها، وكادت تدمنها.

اللّيلة ستشاهد الحلقة الأخيرة من مسلسلها، كم تشعر بالتّوتّر كلّما حان دور متابعة هذه الحلقة !!! ارتعدت فرائسها وهي تحدّق في عينَيْ البطل البنفسجيّتَيْن السّائحتَيْن في حزنٍ عميق، بطلها مزيجٌ من رجلٍ وسيم وقطٍّ أشهل، له وجه وقامة رجل، وعينا وأذنا قطّ، وذيلٌ مشعورٌ كثيف يطوّح في الهواء، وبزّة كلاسيكية يعلوها رداء أسود عليه رسم قطّ أحمر، قامته القويّة ذات الأقدام الصلبة سرّ قوّته فضلاً عن قفزاته الرّشيقة، ومخالبه القططيّة الجارحة.

كان بطلها القطّ من ضمن خططها الطّفوليّة في الماضي،كانت تتخيّل أنّها ستغدو سيّدة مجتمعٍ ناجحة، وأنّها ستدرس

في إحدى الجامعات الحكوميّة التّي بالكاد تستطيع والدتها الأرملة أن تحتمل نفقاتها، ولا شكّ أنّها ستلمع في مجال الحسابات الإداريّة التّي أبدتْ ذكاءً وألمحيّةً بها منذ كانت صغيرة، ولا شكّ أنّها ستغدو يوماً مديرة بورصة عالميّة، وسيظهر بطلها القطّ حيّاً حقيقيّاً في حياتها، سيُجنّ بحبّها، وسينظم في جمالها أشعاراً خالدة، تسجّل اسميهما في سِفْر الحبّ العظم.

وكبرت، وتحقّقت أحلامها بمعنىً أو بآخر إلاّ الحبّ، فقد كانت تعسةً متعثّرةً فيه، فكلّما أحبّت رجلاً زهد بها ولم يحبّها، وكلّما أحبّها رجل زهدت به ولم تحبّه، وبذلك عرفت الحبّ عشرات المرّات، ولم تصدف الحبيب، وبقيت تحلم بالفتى القطّ، الذي يتقن فنون الحبّ والفروسيّة، عشرون عاماً مضت ،وهي متسمّرةٌ في مكانها تردّد كلّ ليلة سيرة حبيبها القطّ . . .

في الحلقة الأخيرة من المسلسل الكرتونيّ يحتفل البطل القطّ بعيد ميلاد حبيبته المخطوفة، هذه المرّة الأولى التّي تصدف الحلقة الأخيرة عيد ميلادها، تذكّرت أنّ أحداً اليوم لم يتّصل ليقول لها كلّ عامٍ وأنتِ بخير، قدّرت أنّ أمّها لا بدّ قد طهت لها كعكةً شهيّةً كالتّي اعتادت أن تطهوها في عيد ميلادها، ولعلّ أُختَيْها أيضاً ادّخرتا لها هديّةً ما.

ولكنّها تتمنّى لو أنّها تقضي عيد ميلادها مع حبيبها القطّ الذّي تعلم أنّه سيهلك دون حبّه في نهاية هذه الحلقة، تتنهّد، وتقول في نفسها: "أتمنّى أن تكون هديّة عيد ميلادي ساعاتٍ

مع بطلي القطّ . . . أتمنّى ذلك من كلّ قلبي".

نورٌ ورديٌّ يغشى المكان، جلبةٌ ملوّنة تمتدّ لولبيّةً لامعةً، تحتويها سريعاً، ثمّ تجذبها إلى شاشة التّلفاز، تخترقه سريعاً بانزلاقةٍ نوريّةٍ سلسة، ثم تجد نفسها في عالم مسلسلها التّلفزيونيّ، ظلالٌ وارفة ورديّة في المكان، الأرض هشّة مثل قطعة بسكوت، والأجواء تَخترق بحركة يد، كلّ شيء ملوّن مطليّ عند لمسه يتحوّل إلى نقطةٍ لونيّة، وفي البعيد قلعة كبيرة ذات أسوارٍ حجريّةٍ قديمة، مرسومةٍ بدقّة، وتحت شجرة الطّرنج الأسطوريّة يتمدّد حبيبها القطّ، يعالج كلوماً قاتلة، تهرول راكضةً إليه، يعيقها الثّوب الكلاسيكيّ الملوّن الجميل الذّي تلبسه، والحذاء الزّجاجيّ الذّي يظهر مخالب قدمَيْها، تطالع مخالب يدّيْها بسرور، فمن دواعي سرورها أن تصبح قطّةً عاشقةً، ذيلها المشعوعر الكثيف يتأرجح يمنةً ويسرة وهي تركض.

تنحني بالقرب من حبيبها المكلوم، توسّد رأسه في حضنها، تداعب وجنتَيْه ،تأخذ بلعق جراحه بلسانها الأحمر اللّزج، يتقارب الجلد المتفسّخ، وتبرأ الجراح المتعفّنة، يلفح نسيمٌ ذهبيٌّ معطّرٌ المكان، يتطاير شعر الرّجل القطّ، ويتهاوى على وجنتَيْه، يفتح عينَيْه، يطالعه وجهها الجميل، يبتسم، ويقول: "أين أنا؟"

تقول له بنبرة من حفظ دوره السّينمائيّ عن ظهر قلب: "أنتَ معي".

يقول باستغرابٍ واضح: "ولكن كان من المفترض أن أموت، أليست هذه هي الحلقة الأخيرة؟!"

- "كان من المفترض أن يحدث ذلك، ولكنّي جئتُ كي أنقذكَ".
- "وماذا عن موتي؟"
- "لن تموت، بل ستكون حبيبي".
- "ولكن من داوى جراحي؟"
- "أنا من فعل ذلك".
- "أيعني هذا أنّنا عالقان في هذا المسلسل؟"
- "أظنّ ذلك".
- "ألن تغادري وتتركيني؟"
- "أبداً"
- "حلمتُ دائماً بلقياكِ . . ."
- "وأنا انتظرتكَ طويلاً . . ."
- "ما اسمكِ يا جميلة؟"
- "سمّني ما تشاء . . ."
- "ما رأيكِ باسم ميمو الشّقيّة؟"
- "يبدو اسماً مثيراً، ويوافق اسم نيمو الشّجاع".

- "أنتِ تملكين أجمل عينَيْن بنفسجيّتَيْن رسمتهما يدَا فنّان، كما أنّكِ تملكين ذيلاً مشعوعراً كثيفاً مثيراً للغاية".
- "أيعجبكَ؟"
- "أكثر ممّا تتصوّرين، إذن أنتَ حبيبتي المسجونة في القلعة التّي قطعتُ أربعين حلقةً لكي أنقذها ".
- " تستطيع أن تقول ذلك . . ."
- "هل يمكنكِ أن ترافقيني إلى بيتي؟"
- "ولكنّ بيتكَ موجودٌ في الحلقة السّابقة".
- "وما المشكلة في ذلك؟"
- "انتقالنا إليه يعني أنّنا يجب أن نضع شريط الحلقة السّابقة".
- "نضعه أين؟"
- "لا عليك ممّا قلت".
- "أتحبّين أن نتمشّى سويّاً بالقرب من جندول السّعادة؟"
- "بالطّبع . . ."
- "أستطيع أن أحملكِ إن شئتِ".
- "يسعدني أن تفعل".

يحملها، ويقطع بها البساتين حتّى يصلا إلى جندول

السّعادة، يستقلّ هو وإيّاها قارباً خشبيّاً، يجدّف بهدوء، القارب يتهادى على صفحات الماء الزّرقاء، سطحها الرائق يشفّ عن عالمٍ رائعٍ من الأسماك والمرجان البلّوريّ والمخلوقات النّهريّة الصّغيرة، يحدّثها بآلاف القصص، يجدّف ويجدّف، حتّى يصلا إلى تخوم الحلقة، حائطٌ أسود صلد يصطدمان به، يسكنها خوفٌ كبير، تطوّق رقبته بذراعَيْها، يقول لها: "لا تخافي، ولكنّنا وصلنا إلى آخر الحلقة".

تسأله بتوتّر: "والحلّ؟"

يقول بحزنٍ كسير: "لا حلّ . . . ليس أمامنا إلاّ أن نستسلم إلى قدرنا".

تقول بتوثّب قطّةٍ مشاكسة: "هذا لن يكون، سأبذل المستحيل لنبقى سويّاً، سأنفق كلّ مدّخراتي لإنتاج حلقاتٍ جديدة من مسلسلكَ، لن نفترق أبداً، سأكلّف الرّسامين برسم نهايةٍ رائعة لنحيا فيها بسعادة، لن أسمح لأيّ قوّةٍ مهما عُظمت أن تفرّقنا . . ."

يسألها بانكسار: "أتعنين أنّكِ ستعودين؟!"

- "بالتّأكيد . . . ثق بي".
- "أنا أحبكِ . . ."
- "وأنا كذلك، لن أسمح لقوّةٍ أن تحرمني من حبّكَ الذّي أنفقتُ الانتظار في انتظاره".

- "أنتِ من وهبني الحياة من جديد . . . أنتِ قوّتي السّحرية . . ."
- "وأنا أحبّكَ . . . أحبّكَ . . . أحبّكَ".

يزداد السّواد، ويعلو صوت جريان شريط الفيديو حتّى يعلق في النّهاية،يبتلع السّواد البطل، وتختفي كلّ الألوان، تشعر أنّها تهوي من علٍ في سديمٍ أسود، تصرخ برعبٍ، ثمّ تستيقظ هلعى، تمسح وجهها بكفّيها، تطالع السّاعة التّي تملأ المكان بصوتٍ مسير عقاربها، تحرّك قدميها المتيبّستَيْن من نومٍ طويل، تنتصب بصعوبة، أشعّة الشّمس الشّتويّة تتسلّل من خلف السّتارة، وتزعج بصرها، فتشيح بوجهها مبتعدةً، تلبس حذاءها البيتيّ الرّقيق، وتتّجه إلى الحمّام لتأخذ حمّاماً بارداً منعشاً، تعرّج على المطبخ ؛لتشرب كأس ماء تجلو به جفاف حلقها واضطراب أنفاسها .

بعد الحمّام تلبس ملابسها الرّسميّة، تكاد تزعق طالبةً أمّها كي تسألها عن رأيها في ما تلبس، تتذكّر بصعوبةٍ أنّ أمّها لن تلبّي أبداً طلبها، فقد توفّيت منذ سنوات، وتركتها وحيدةً تعالج أحزاناً لا تنتهي، وذكرياتٍ لا ترحل، لا سيّما بعد أن تزوّجت أختاها وهاجرتا بعيداً، وانقطعت أخبارهما عنها إلاّ من رسائل قليلة ترسلانها من حينٍ إلى آخر.

مشّطت شعرها المسترسل على عجل، داعب حلم اللّيلة السّابقة ذاكرتها ، ابتسمت منتشية ، في المرآة رصدت لمعاناً

غريباً في عينَيْها، عدّلتْ بقلمها بعض برامجها اليوميّة التّي كتبتها في سجلٍّ يوميٍّ صغير كي لا تنساها، كان شريط الحلقة الأخيرة من مسلسلها المفضّل ما يزال على منضدة غرفة المعيشة، دسّته بحذرٍ في بيته الورقيّ، ووضعته في مكانه على رفّ أشرطة الفيديو، سجّلت على ورقةٍ مستقلّةٍ اسم وعنوان ورقم هاتف ناشر هذا المسلسل نقلاً عن غلاف الشريط الإلكتروني ،ابتسمت من تلك الفكرة المجنونة التّي مرّت في خاطرها، وحوقلتْ غير مصدّقة أنّها تنوي إنتاج حلقاتٍ جديدةٍ من مسلسل (نيمو الشجاع)، لكنّها عزّت نفسها بعائد الرّبح الكبير الذّي سوف تجنيه من إنتاج هكذا مسلسل، فلا زالت تذكر النّجاح الجماهيريّ الكبير الذّي لاقاه عندما عُرض لأوّل مرّةٍ منذ سنواتٍ طويلة.

دسّت الورقة في حقيبتها، ألقت نظرةً أخيرة عجلى على هندامها في مرآة الرّدهة المؤدّية إلى باب الشّقّة، فتحت الباب بمفتاحها المنضود ضمن مفاتيح كثيرة في ميداليةٍ فضيّةٍ محفورٌ عليها رأس قطّ، تنفّست بعمق، أغلقت الباب وذيلها المشعوعر الكثيف يتحرّك يمنةً ويسرة .

الضّفّة الأخرى

لا يذكر كيف كانت البداية، ومن يذكرها؟! بل من يستطيع أن يجزم بأنّها كانت البداية؟ في هذا المكان يستشعر أطواق النّهايـــة تحاصره، تعصر أمانيه، تمضغه بضعفه واستعطافاته، وتلفظه فـــي النّسيان. كان يشعر بشوقٍ وبنشوى، ومن يـــستطيع أنّ ينكرهمـــا؟! الشّقاء هو الحقيقة الوحيدة في هذا المكان، كلّ الأشياء بطعـــم هـــذه الضّفّة وبلونها، كلّها تحمل الرّتابة، وتشيع في نفسه القرف،والتّـــوق إلى السّعادة إلى الضّفّة الأخرى، إلى الحلم.

مثل كلّ القصص، وعلى منوال كـــلّ الحكايـــا التّـــي سمعها، والتّي قرأها كانت قصّته ، بل كانت قصّة كلّ أولئك الـــذّين يراهم على مدّ بصره على هذه الضّفّة ، بعضهم يكبرونه سناً،

والبعض الآخر أصغرمنه سنّاً، نساء ورجال، أصدقاء ومتعادون، جادّون ومتعبون، كلّهم ينبضون بروح الخلاص وأمل الوصول إلى الضفّة الأخرى.

لا يعرف كثيراً عن متاع الحياة، المكان الذّي جاء منه نسيه تماماً، بل لا يكاد يذكر أنّه قد جاء من مكانٍ أصلاً، ولكنّ كلّ الذّين هنا جاؤوا من البعيد، ولعلّه مثلهم فلا أحد يُولد هنا، لا أحد يُولد على ضفّة الانتظار، ولكنّ الكثيرين يموتون عليها، لا يذكر له اسماً ولا وطناً ولا أمنية، لا يذكر إلاّ ما هو في صدده الآن .

لم يبرّ بوالدين، ولم يزرع أبناءً، ولم يحضن زوجة، ولم يذق جمال الانصهار في جسد آخر، في بعض الأحيان يحلم بجسدٍ غضٍّ ينصهر فيه حتىّ يعتصر آهاته، لكنّه ما يبرح أن يضنّ بنفسه على نساء هذه الضفّة، في الضفّة الأخرى سيكون له وقفة طويلة، ولا تنسى مع حوّاء ذلك العالم المختفي.

قبل زمن لا يعرف له مقدار، فلا ساعة ولا زمن ينتظمان الشّوق والانتظار في هذا المكان، عرف امرأة سمراء على هذه الضفّة ، الآن هو لا يذكر لها اسماً، لعلّه لم يُعنّ نفسه بالسّؤال عن اسمها أصلاً، ولكنّه أحبّها، وكان يجزم بأنّه سيتزوجها في الضفّة الأخرى، كانت تعرف الكثير عن الأسماء والتّواريخ والعوالم وسير الأبطال، ونهايات الثّورات، كلّها قصص حزينة، ولكنّه أحبّها ، أحبّ القصص أم المرأة؟ لعلّه أحبّ كليهما. حلم وإيّاها طويلاً وطويلاً بالضفّة الأخرى ، حيث السّعادة والأمان

والشّباب والحبّ، اتفقا على أنّ ينجبا الكثير من الأبناء، وأن ينعما بكلّ لحظة في ذلك العالم، كانت تشتعل بذلك الحلم، وتتدفّق به، لكنّ ذلك النّهر الكبير المتلاطم الذي يفصله عن الضّفّة الأخرى ابتلعها بتوحّشٍ وهي تحاول أن تجتازه سباحة، شأنها في ذلك شأن الكثير ممن حاولوا اجتيازه.

فكّر بأنّ يحزن عليها، لكنّه كان قد نسي كيف يحزن البشر، وعندما حدّق في النّهر الأسود الكبير الذّي يبتلع البشر بلا رحمة، ولا يلفظهم بل يمتصّهم كما يمتصّ أحلامهم وأشواقهم، شعر بجبروته، فخشيه، حتّى أنّه نظم طاقة من الأشواق البريّة التّي تنغرز أشواكها بلا رحمة في زهورٍ ورديّةٍ كبيرة، وقدّمها احتراماً وإجلالاً إلى هذا النّهر المتدفّق في ظهر الزّمن، وعاد إلى بيته القشّيّ وقد نسي تماماً أنّه كان قد قابل تلك السّمراء الغريقة في يوم من الأيام، وعندما لمح صوت ضحكتها العذبة في أذنيه من عبق الماضي القريب تساءل من تكون؟ ثم هزّ كتفيه بلا مبالاة ،وقصد مضّجعه الخشن.

في مساء ذلك اليوم سمع أصوات نساء الضّفّة الأخرى، كانت أجسادهنّ كأنّها قطع اللّيلك، ضحكاتهنّ سعيدة، يشاطرن الرّجال الذّين معهم الضّحك والسّعادة والحبّ. أمضى ساعات وساعات ينقش على ورق البرديّ ما يتوقع أنّ يجده من ملذّات في تلك الضّفّة ، اللّغة هي الشّيء الوحيد الذّي يذكر أنّه تعلمها.

أمضى زمناً طويلاً لا يعرف له مقـداراً أو اسـماً يـدوّن ملذّات تلك الضفّة، وصف سعادة لا تنتهي، وأشواقاً تُروى، وشـباباً يتجدّد ، جال في أراضٍ من الخير، وسماء دافئـة، وعاشـر نـساءً خُلقن من الجمال، وخالط رجالاً دستورهم الوفاء، باختصار كانـت النّساء من مرمر، والرّجال مـن زبرجـد، والأرض تفـيض لبنـاً وعسلاً. كتب وكتب وكتب عن ذلك العالم حتّى انبـرت أصـابعه ووهن عظمه.

وكلّما شعر بالتّعب يمتدّ إليه كان يرسل بـصره إلـى تلـك الضفّة ، فيرى السّعادة تنتظره، الكلّ هناك نساء ورجال ينتظرونـه على الشاطئ.

قرأ النّاس على الضفّة التّي هو عليها ما كتب المـرّة تلـو الأخرى، وردّدوه آلاف المرّات حتّى حفظـتْ الـضفّة والأشـجار وحجار الأرض ما قالوا، أصبح ما كتب دستورهم، وأصـبح هـو رسولهم، وبات هو المخلّص المرتجى، وصاحب الحظوة العظمى.

وعندما جاء الوقت المنتظر ألقى الجميع بأنفسهم في المـاء، أعلنوا ثورة على النّهر الذّي لا يرحم، قرّروا أنّ يكسروا جبروتـه، وأن يحطّموا ظلمه، بصيحة رجل واحـد، كـانوا جميعـاً أجـساداً غاضبةً تحاربه، وتخوض غماره، والنّهـر لا يـرحم، ثـار علـى وقاحتهم، ابتلع أكثرهم، ولفظ بعضهم، قليل هم منْ نجوا من سواده الذّي لا يعرف نهاية .

عندما وصل الرّسول إلى الضّفّة الأخــرى كــان ممتقعــاً بالتّعب والوهن حدّ التّلاشي، وكانت فرحته لا تعرف حدّاً، كان نبيــاً قد صدق وعده، وقاد قومه إلى الخلاص الذّي يرتجيه، قليــل مــن أتباعه كان قد نجا، وقف بصعوبة، ثمّ أخذ يقفز فرحاً بوصوله إلــى جنّته، أدار نظرات عجلى في المكان، تراءى له أنّه في الضّفّة التّي جاء منها، ولكنّ البحر على يمين الضّفّة ، وهذا يعنــي أنّــه علــى الضّفّة الأخرى، بدليل أنّ الضّفّة الأولى كان النّهر على يسارها.

الوجوه هنا بقسماتٍ مختلفة، ولكنّها تحمل الأمنيــة نفــسها، وهي قطع النّهر والوصول إلى الضّفّة الأخــرى، تحلّقــت الوجــوه بأجسادها المتعبة حوله، حاصرته بــآلاف الأســئلة حــول الــضّفّة الأخرى، صعق لأنّ أجساد النّساء لم تكن من مرمر، ولا أجــساد الرّجال من زبرجد، ولم تكن الأرض تفيض لبناً وعــسلاً، وكانــت الحيوانات مفترسة وكاسرة كما هي على الضّفّة الأولــى، والبــشر يتابعون بحرقة أملهم المرجوّ في الضّفّة الأخرى.

استقبل النّهر بوجهه الكسيف، شعر بأنّه يسخر منه، عــرف أيّ نبيّ مدعٍ كان هو، تحسّس جسده الذّي أحرقته الــسّنون، شــعر لحيته الأبيض لاح في وجهه، تراءى هدير النّهر في أذنيه ضحكات سخرية مريرة، حدّق في الوجوه المرسومة بقسمات الرّجــاء، تنهّــد على مضض وقال لهم : "الضّفّة الأخرى مثل هذه تماماً، ولكنّك قــد تدفع عمرك ثمناً لتعرف ذلك".

وجلس بانكسارٍ على تخوم ضفته الجديدة، وأخذ يراقب

الضفّة الأولى من جديد، حيث النّساء من مرمـــر والرّجـــال من عسجد ،والأرض تفيض لبناً وعسلاً، فكّر بأنّ يصبح نبيّاً مـــرّة أخرى ،لكنّ الباقي من العمر كان لا يفي بذلك.

صداع قلب

كلماتها الحوشيّة الغريبة المختلطة بكلماتٍ عديمة المعنى تملأ الحيّ من جديد، صراخها وزعيقها اللّذان ينطلقان كزامورٍ صدأ لأتفه الأسباب يملآن الحيّ وفق عادتهما التّي تكاد تكون يوميّة، يتقلّب في فراشه مراراً، يدفن رأسه تحت دثاره، ثمّ تحت وسادته، ولكن دون فائدة، فصوتها يتنزّى من كلّ مكان، ويحاصر رأسه، ويصيبه بداء مجنون اسمه صداع الصّباح، يعتدل كالممسوس في فراشه الغائر به، يحاصر شعره وأعلى جمجمته بيديه اللّتين تشدّان بعصبيّةٍ على الألم الذّي يهاجم رأسه؛ فالحياة لم تعد تطاق معها، العمل طوال اللّيل في مناوباتٍ ليليّةٍ مجهدةٍ، ومن ثمّ صوتها طوال ساعات الرّاحة النّهاريّة أصبح جحيماً لا يطاق.

لعن الدّلال أبا سامي الذّي ساقه إلى هذا المكان، فقد خدعه مرّةً عندما أقنعه بالسّكنى في مكانٍ يفوق طاقته المادّيّة، ومن ثمّ خدعه ثانيةً عندما جعله يدفع في شقّته الصّغيرة التي تبدو كعلبة كرتون حلوى رخيصة أجراً يفوق ما تستحقّه، ولكنّ كلّ ذلك يهون لو أنّه كان يحصّل متعة النّوم، التّي باتت متعةً ورفاهيةً ممتنع الحصول عليها بسبب جارته اللّعينة، التي تعشق المشاجرات والزّعيق حدّ الإزهاق، يخال أحياناً إنّها تحيا وتقتات بهذه المشاجرات، وأنّها ستغدو لو حُرمت منها فاقدةً لأجمل خطوط وجودها التي لا تكتمل إلاّ إذا نكّدت عيش جيرانها، ونغّصتْ حياتهم.

تنوّعُ في أسباب وحيثيّات وشخوص المتشاجر معهم، ولكنّها تحافظ على سيناريو واحد، فالمشكلة تبدأ بزعيقها وندبها، وتتفاقم عندما تبدأ بتوزيع الشّتائم والتّهم والسّباب وأقذع الوصوفات والتّلميحات، ثمّ تتأزّم عندما تبدأ بالتّصريح، ورجم المحصنات، والتّشكيك بالأنساب و صون العرض، تَضْرب غالباً وتُضْرب نادراً ، ثمّ تنهي برنامجها المعتاد في قسم شرطة العاصمة، ثمّ تجرّ أحدهم أو إحداهنّ إليه، وتفتح ملفّ شكوى جديدة، وفي اليوم التّالي، تتنازل عن الشّكوى ،وتقبل بالصّلح، وكان الله بالسّرّ عليم.

في البداية كان ينفجر ضاحكاً ضارباً كفّاً بكفّ، وهازّاً منكبيه حدَّ الانكفاء على ظهره، كلّما سمع قصّةً من قصصها، أو كلّما شكى له أحدٌ من أفعالها ومن أخلاقها السّيّئة، ولكن ما

إن اعتاد على صراخها وفوضاها حتّى أصبح من أشدّ المتبرّمين بوجودها ،فقد منعته النّوم بمشاكلها واحتجاجاتها، وأساءت إلى مظهره كلّما جاءه ضيف لزيارته، فوجدها تنبح في الحيّ دون توقّف، تنتصب بجسدها البرونزيّ الجميل، وتتمايل بتشنّجات وإيماءاتٍ وإشاراتٍ فاضحة، ثمّ تصفق كفّاً على كفّ، وتبدأ في بثٍّ برنامجها اليوميّ، الذّي فكّر يوماً في إفراد جزءٍ من وقته لرصد كلماته البذيئة وتعابيره السّاقطة، وتلميحاته الفاحشة، فلا بدّ أنّها تملك وبلا منازع قاموس ألفاظٍ البذاءة كلّها، والحقيقة وإن كانّ خياله الذّي غُذِّي بأرقى روايات الأدب العالمي، وصُقل بعيون الشّعر العربي والإنجليزيّ الذّي يتقنه لغةً أمّ ثانية، إلاّ إنّه قد عجز عن أن عن يجعله يتصوّر امرأةٍ مزيجٍ من الأنوثة المتوّحشة والبذاءة المقزّزة، والوقاحة المتناهية، فضلاً عن الوقوع في دائرة الاستفزاز بشكلٍ دائم، كما أنّه حال دون أن يسمح له بتصوّر أنّ امرأةً غجريّةً سيّئة السّمعة تتعاطى الاستجداء عملاً تعتاش منه تكون جارة له يوماً ما.

تخيّلها غجريّةً سمينةً بملابس مهترئة تفوح برائحة القذارة والتّعرّق، ذات جسدٍ مترهّل يصرّح بجرأةٍ عن نفسه، وأقدام متشقّقة الكعاب، هذا التّصوّر يلائم تماماً زعيقها الذّي خلق في رأسه صداعاً لا يفارقه، مع أنّه كان قد لمح جسدها الجميل أكثر من مرّةٍ من بعيد، وهو يستقلّ سيّارته منطلقاً إلى عمله، ولكن كان يسعده أن ينتقم منها ولو حتّى بخياله الذّي يُعمله

لتشويه شكلها، والتّنديد ببشاعة وجودها، وقرّر أن يكتشفها، وأن يتبع صوتها النّحاسيّ الحادّ، لعلّه يقتلها، ويعود إلى فراشه هانئاً سعيداً.

كان قد حزم أمره هذه المرّة، نعم،قرّر أن يتوجّه إليها، وأن يقف قبالتها تماماً، وأن يصفعها على مرأىً من الجميع، لعلّها تخرس إلى الأبد، فيتمكّن من النّوم، سبّها في داخله، ثمّ جهر بشتائمه لدرجة أنّه تخيّل أنّ كلماته قد وصلت إليها، وعلى حين غرّة ألفى القبض على نفسه، وهو يصفها بأقذع الصّفات، ويكيل إليها حشداً من البذاءة التّي ما دري أنّه حفظ بعضاً منها؛ لكثرة ترديدها على مسمعه من لسانها السّليط، شعر بالخزي من كلماته السّوقيّة، لكنّه عزّى نفسه بغضبه وبسمعتها السّيّئة التّي لا تربأ بها عن التّهم والشائعات.

فتح باب شقّته كالمأفون، صكّه بقوةٍ كادت تخلعه، عندما لامست قدمَيْه برودة الأرض تذكّر أنّه حافٍ لا حذاء يقيه البرد أو الأذى، لكنّ غضبه كان أشدّ محفّزٍ، فاستجاب له دون تردّد، ارتقى عشر درجاتٍ بقفزاتٍ عملاقة، ثمّ تذكّر أنّ عليه أن ينزل السّلّم لا أن يرتقيه كي يتّجه إلى عمارتها التّي تقف في مدخلها ، وتنصب هناك شرورها وإذاعة بذاءتها، بصق على الأرض، ومن ثمّ انطلق في عدوٍ سريعٍ ليقطع درجات السّلّم، حتّى وصل إلى عتبة الباب الرّئيسيّ لعمارته، تنفّس الصّعداء، وتسلّح بشهيقٍ عميق، ثمّ يمّم نحوها، قطع الشّارع العريض الذّي يفصله عن مكان وقوفها، كان حشدٌ من سكّان العمارة قد

تحلّقوا حولها، يداها الصّغيرتان تكمشان بصلابةٍ ياقة أحد سكّان الحيّ، فيهتزّ بين يديها، وهي تسبّه، وتتّهمه بأفظع التّهم الأخلاقيّة، يبدو بين يديها كعصفورٍ مهصورٍ بالكاد يلتقط أنفاسه التّي يكاد يلفظ آخرها، منظره الظّريف يكاد يدعوه إلى الضّحك الذّي يتسرّب لذيذاً إلى نفسه ،ويكاد يطفئ لهيب غضبه، لكنّه يأبى إلاّ أن يحقّق الغاية التّي جاء من أجلها، يستجمع شتات عزمه، وماضي غضبه، وينقضّ كالنّسر على يديها الصّغيرتَيْن اللّتَيْن ما ظنّ أنّها تملك يدَيْن بمثل جمالهما وأديمهما البرونزيّ الذّي يسكن في موجةٍ من اللّمعان والبريق الذي يضفيه عليه حشدٌ كبير من الأساور والخواتم الملوّنة والزّجاجيّة التّي ترتديها، يقول لها، وقد دفعها بعيداً، فحرّر ياقة الرّجل من قبضتها: "كفّي أيّتها العاهرة عن إزعاجنا".

يصمت الجميع بدهشةٍ، تزوغ عينا الرّجل الذّي خلّصه من يدَيْها، تتماسك بعد أن كادت تقع أرضاً من هول دفعته لها، تنظر في عينَيْه نظرة قطّةٍ متوحّشةٍ، عيناها الرّماديّتان فيهما أجمل وأغرب تعبير،تجتاح وجهها غيمة غضبٍ حمراء، يكتسي بريق عينَيْها بإهانةٍ من الواضح أنّها لم تستطع أن تستمرئها، تقترب منه، وثدياها مستنفران ببروزٍ لذيذٍ من تلك الفتحة العريضة الكبيرة في ثوبها القديم، تبصق في وجهه باحتقار، وتقول له: "يا أولاد الكلب، أنا العاهرة أم أنتم؟ في كلّ يومٍ أشهد كلباً على بابي، يقبّل قدمي، وينبح دون عرضي وجسدي، وعندما أصدّه، تصفني بالعهر . . . غداً تقف هنا، وأتشاجر

معكَ مثلما أتشاجر مع هذا الذّي جئتَ تدافع عنه، ولنفس السّبب، فقط لأنّكَ تحلم بجسدي!!" تبصق أرضاً من جديد، وتقول: "يا ابن الكلب . . ."

كلماتها تثير صداعاً غريباً في قلبه ورأسه، جسده مستنفزّ من أنوثةٍ ساحرة تحاصر رجولته، تضطرب كلّ حواسّه، ويتساءل بفضولٍ أنّى له أن نسي أن يسأل ولو لمرّةٍ واحدةٍ عن سبب مشاجراتها وزعيقها، كلماتها الصّادقة ذابت في كلّ ركنٍ من ذاته، لكنّها أهانته، عيون الجميع تحاصره، فجأةً أصبح عالقاً هو الآخر ودون توقّعٍ بين يدَيْها، تمنّى لو أنّه يستطيع أن يضمّها إلى صدره، فلا بدّ أنّ عندها رغبةً مهولةً للبكاء، حنوٌّ غريب يهاجم قلبه، ولكن يده تسبقه فتمتدّ دون وعيٍ، وتصكّ وجهها النّديّ، وتدفعها إلى الأرض، وهو يقول: "اخرسي . . . يا فاجرة . . . "

يقفز الرّجل ذو الياقة نحوه، ويقبّل كتفه الأيسر قائلاً بنبرة تشجيعٍ وشماتة: "تسلم يداك، منذ زمنٍ طويلٍ تحتاج هذه العاهرة إلى من يعلّمها الأدب، تظنّ أنّ كلّ رجال الدّنيا يشتهونها".

صوتٌ نسائيٌّ لا يعرفه يقول: "متى سينظف حيّنا من هذه الزّبالة؟!"

أصواتٌ أخرى تتقوّل، وتتبجّح، لا يدرك تماماً كنه ما يسمع، فأذناه مصابتان بصمم، وصداع رأسه يعجّ في جمجمته،

ويمتدّ ليجتاح قلبه، ودبيبٌ غريبٌ يخدّر كفّه التّي صفعتها، يفكّر بالانحناء لرفعها عن الأرض، لكنّ قدمَيْه الملتصقتَيْن بالأرض تحولان دون ذلك، يراقب تثنّيات جسدها اللّدن، تستر فخذَيْها اللّذين انكشفا إثر وقوعها، تنتصب على مقربةٍ منه، تقترب منه، تشهق نفسه فزعاً، يراهن على كلّ قوّته، التّي تخذله، يعجز عن أن يحرّك ساكناً، يدها تمسّد خدّها الذّي صُفع أديمه الهشّ، في عينَيْها دمعتان ليلكيتان لم يرَ دموعاً بمثل لونهما من قبل، تهتزّ قسماتها ساخرةً، وتقول له بيقين قديسة وثدياها يضطربان هبوطاً وصعوداً في حركَتيْ شهيقٍ زفيرٍ متواترتين بسرعة: "ألم أقل لكم أنّكم أولاد كلب، غداً تأتى إليَّ زاحفاً على يديك ككلبٍ عطشان، عندها سأبصق عليكَ أيضاً، حتّى ولو صفعتني . . ."

"حتّى ولو صفعتني . . . حتّى ولو صفعتني . . ." كلماتها بقيت تحاصر أذنَيْه، طوال الطّريق، بقيت تحاصره، وبمعنىً أدقّ، تخنقه، شعر أنّ أنفاسه تنفد، وأنّ يداً ما تحاصر رقبته، فتح زرّ قميصه ،ووسّع من خناق ربطة عنقه، لكنّ أنفاسه استمرّت في الاحتضار، الشرّطيّ الذّي جاء لاصطحابه تنبّه إلى وضعه، وعرض عليه المساعدة، ولكنّه تظاهر بالتّحسّن، في المخفر كانت تجلس على الكرسيّ الخشبيّ القصيّ، توقّع أنّها قد حرّرت ضده شكوى اعتداءٍ وضرب وقذف، سأله الضّابط الكثير من الأسئلة، أجاب عنها بإيماءةٍ من رأسٍ مسكونٍ بالصّداع ، لم يستطع أن يخمّن أيّ الكلمات وضعها الضّابط

وصفاً لإيماءاته، وقّع محضر الشّكوى، كان يشعر بإذلالٍ كبير، وبعارٍ أكبر، تمنّى أن يخفي كفّه التّي صفعتها في أيّ مكانٍ؛ كي لا تذكّره وإيّاها بجريمته النّكراء، تمنّى لو أنّ عينَيْه تصدُف عينَيْها في نظرةٍ واحدة، لتنقلا إليها اعتذاراً من صميم رجولته المسفوكة عند جمالٍ أنوثتها، لكنّها أبت حتّى أن تهبه ولو نظرةً من عينَيْها اللّتَيْن تُشيحهما عنه.

غادرتْ المكان قبله، ثمّ غادر بعدها، لم يذهب إلى عمله اللّيليّ، أمضى ليلته يراقب نور غرفتها المضاء، تساءل أيّ النّساء هي؟ لا يعرف عنها إلاّ أنّها غجريّة تستجدي سائقي السّيّارات والمشاة والمتسوّقين، بهذه الطّريقة تكسب قوتها، بل وتثري أيضاً، عرف من بعض الجيران أنّها تعيش وحدها في شقّتها، الكثير يرنو لها بعين الرّيبة والشّكّ، ويرجمها بالبغاء والعهر، لكنّه لم يرَ رجلاً يوماً يدخل إلى بيتها، ولم ترنو إلى سمعه ضحكات رجلٍ من بيتها، وما رآها ألبتّة تتأبّط ذراع رجلٍ وهي تدخل بيتها، فأيّ النّساء تكون؟

حاول أن يكفّ عن متابعة نور غرفتها، لكنّ محاولاته باءت بالفشل، وظلّت عيناه ملتصقتَيْن بتحدّ جحشٍ صغيرٍ بنور غرفتها، على الرّغم من ذلك الصّداع الذّي يملأ قلبه وروحه فضلاً عن رأسه الذّي ربطه بإحكامٍ بخرقةٍ قديمةٍ مبلّلة لعلّ ألمه وصراخه وشكواه يتوقّف ولو للحظات. كانت ليلةً هادئةً، وخمّن أنّها ستستمرّ دون صراخٍ صباحيٍّ،مع أنّ نفسه كانت تشتاق على غير توقّعٍ وبدون تعليل لسماع صوتها الحادّ،ورؤية عينَيْها

اللّيلكيّتَيْن، وتنفّس صعدائها المتمرّدة، تساءل ماذا علّها تفعل؟ تخيّل رجلاً ساحراً يسكن شقّتها، تصوّرها قطّةً سياميّةً مدللّة بفراءٍ وثيرٍ ناعمٍ بين يدَيْه، ازداد صداع رأسه، واضطرب قلبه بغضبٍ جارف، ما كان ليستطيع أن يتحمّل هول هذا التخيّل، قرّر أن يقتل شكّه بيقينٍ أبلج، حزم نفسه كالمجنون، وهرول إلى بيتها، قرع الباب بتوتّرٍ وقسوة، سمع صوت خلخالها ذا الأجراس الصّغيرة يصدر أصواتاً مضطربة تدلّ على أنّها جاءت راكضةً لتعرف من زائرها، فُتح الباب، وأطلّ رأسها الصّغير، يليه صدرها الصّغير النّاهد الذّي يدفع عشرات القلائد الملوّنة التّي تحيط بجيدها الصّغير، رنت إليه قائلةً بتقزّزٍ وتحدٍّ: "ألم أقل لكَ أنّكَ ستأتي زاحفاً آجلاً أم عاجلاً؟!"

هزّته كلماتها، وكاد يمطرها بسيل بذاءةٍ لا يقلّ قذارةً عمّا سمعه منها في الماضي، دفع باب البيت بشراسةٍ، ودلف بتوتّرٍ إلى الدّاخل، داهم كثورٍ مطعونٍ برمحٍ كلّ غرف البيت، لكنّه لم يجد الذّي توقّع أن يجده، تنفّس الصّعداء، كانت قد أصبحت خلفه تماماً، استدار إليها، فوجدها شاخصةً عاقدةً يداً على يد، ضاربةً بقدمها اليمنى الأرض بإيقاعاتٍ قلقة متوتّرة تنمّ عن قرب حلول عاصفةٍ، هزّت رأسها بإيماءة قدّر منها أنّ فيها فهم مذبوح لحقيقة شكوكه واتهاماته، تمنّى أن يرى في عينَيْها تقديراً أو عفواً، لكنّه ما رأى ذلك، تلعثم ثمّ قال بصعوبة: "أنا . . . أنا ."

قاطعته، وقالت: "اخرج من بيتي . . . الآن، سريعاً قبل أن

أطلب لكَ الشّرطة . . ."

- "ولكنّني !!؟"
- "هيّا إلى الخارج".

أمضى أيّاماً يسيط نفسه بنظراتها وكلماتها، واتته ألف فكرة، وتمخّض صداع قلبه عن ألف حلّ، قرّر أن يقتلها، قرّر أن يغتصبها آلاف المرّات، قرّر أن يُكبّ على قدمَيْها طالباً العفو، قرّر أن يرحل ،وأن يتركها إلى الأبد، قرّر أن يلجأ إلى أقرب مستشفى ليعالج صداع قلبه الذّي أثقل صدره، وكاد يقتله، قرّر ألف قرار، ثمّ قرّر أن لا يفعل شيئاً، لكنّ جيرانه لا سيّما رئيس مجلس العمارة التّي يسكنها قرّروا أن يوقّعوا وثيقة شكوى يوجّهونها إلى محافظ العاصمة، يطالبون فيها بترحيل الغجريّة من الحيّ لسوء أخلاقها، وعلى اعتبار أنّ وجودها تهديدٌ لأمن وهدوء وسمعة الحيّ، فضلاً عن حماية الأبناء والبنات الذّين تقتضي تربيتهم على الجادّة أن يعزلوا دون أيّ فسادٍ تمثّله تلك الغجريّة.

كان متأكّداً أنّها من أشرف نساء الدّنيا، وأنّ يد رجلٍ لم تمسّ جسدها البضّ، وأنّ عين رجلٍ لم تغرق في جسدها العاري، ولكنّه وقّع على العريضة، لقد كرهها، نعم،كرهها ؛لأنّها طردته من بيتها، كرهها ؛لأنّها سبّبت له صداع الرّأس، كرهها ربما ؛لأنّه يحبّها .

وجاء موعد ترحيلها، من شرفة شقّته وقف ليشاهد

ترحيلها، ليمرّغ بشماتته أنوثتها العذبة، ليتيح لعينَيْه أن تتملّيا منها لأطول فترةً ممكنة، ولكنّ ترحيلها لم يتمّ؛ لأنّها كانت قد غادرت الشّقّة منذ أيّام، دفعت ما يستحقّ من أجرةٍ عليها، وسلّمت مفاتيح المنزل لصاحبه العجوز، واختفت بهدوء، شعر أنّ دمعةً في عينَيْها قد سالت بانكسارٍ، مدّ يده ليجفّفها بحنوّ، سقطت يده دون أن يقصد على خدّه، فوجد عليه أربعة سجامٍ سخينة، كتم شهقةً مكلومةً، ودلف إلى غرفته، واستلقى في سريره لساعات بل لأيّام، استلقى في هدوءٍ مقزّز كما لم يستلقِ من قبل، الهدوء كان مواتياً تماماً للنّوم الذّي قلب الدّنيا من أجل الحصول عليه، لكنهّ تمنّى على استحياء صوت زعيقها، أغمض عينَيْه، وحلم بكلماتها ونداءاتها تشقّ صباحه من جديد، في حلمه رآها تسبّه حدّ الإقذاع، ثمّ تستسلم إلى قبلته العميقة الي تمتصّ شفتَيْها بلزوجةٍ منعشةٍ ساحرة، هسيس إكسسواراتها مرّن رجولته على التّوثّب، وهمسها الذّي ما خبره ألقى الدّنيا عند قدميها ،في الصّباح يكون للدّنيا، أو تكون الدّنيا له، ولكن دون وجودها، فيمقت وجوده، ويحنّ صداع قلبه إلى صوتها.

طوّف في شوارع العاصمة لمئات المرّات، بحث عنها في عيون كلّ الغجر والمتسوّلين، تسكّع طويلاً في السّاحات العامّة، والمتنزّهات الوطنيّة، وسمع وشوشةً لم يعرفها، جنّد وقته للبحث عنها، كان يهفو إلى سماع صوتها، أصبح مغرماً بتتبّع المشاجرات؛ لعلّه يلقى صوتها النّحاسيّ الذّي أورثه صداع قلبٍ

لا يشفى،لكن دون فائدة .

اعتاد أن يجلس في مقعده الهزّاز قبالة شرفة منزلها الذّي هجرته منذ زمنٍ لينتظر إيابها الذّي لم يحدث، أصبح في نفسه ولعٌ خاصٌ بالغجريّات اللّواتي يستمرئ كلامهنّ ،وينقطهنّ بالنّقود، ويبحث فيهنّ عن غجريّةٍ ساحرةٍ طردته يوماً من بيتها، حتّى غدا اسمه عند الأصدقاء والمتندّرين (أبو الغجريّات)، لكنّه ما بالى بذلك، بقي أسيراً صباحيّاً لكرسيّه الهزّاز، يدخّن غليونه الفارغ الذّي ما ملأه يوماً؛ فهو يكره السّجائر، لكنّه بات يعشق الانتظار، انتظار غجريّةٍ يحدّثه قلبه باستحالة عودتها، يشدّ على قلبه المضطرب، الذّي بات يعاني من صداعٍ رهيبٍ، ويغمض عينَيْه ،ويروح في إغفاءةٍ قصيرةٍ تريحه ولو دقائق من صداع قلب .

القاتل

فكّر كثيراً في التخلّص منه ، بل إنّه دّبر أكثر من مكيدة للتخلص من غريمه، ولكن دون فائدة ، هو يلازمه دون بارقة أملٍ في الانفصال أو الفراق. في أحد المرات أغرقه، ولكنّه عاد بعد دقائق حياً غير مبلّل ، في مرّة ثانية ألقاه من فوق بناية شاهقة الارتفاع ، ولكن عندما استدار وجده ملتصقاً بقدميه ، في المرّة الثالثة قدّم به تقريراً سرياً للمخابرات التي اعتاد أنّ يراسلها من وقت إلى آخر لا سيما إذا أراد أنّ يدسّ دسيسة لأحد زملائه في العمل أو الحزب ليتخلص منه ،ويخلو له وجه مصلحته، انتظر أن تلقي المخابرات بغريمه إلى ما بعد الشمس ، ولكنّهم عادوا واعتذروا له ،وقيّدوا غريمه في باب سرّي جداً ومسجّل خطر . الشيخ سلامه الذي يسكن المقابر

ويصنع المساحيق والتعاويذ السحرية من عظام الموتى ، قال له إنّ روحاً من عالم آخر تسكنه ،وترفض أنّ تغادر جسده ، صنع تعويذة له من دم الشيطان وعين القرد ،لكنّ عدّوه الملازم لم يفارقه.

لنقل إنّه فارقه لساعات فقط ، عندها شعر بشعور خفي يدفعه إلى الاشتياق لذلك الظلّ المزعج المشاكس ، والحاجة له بمعنى أو بآخر ، لكن التخلّص منه كان الحقيقة الأكيدة في خارطة مصالحه وحاجاته . عندما عاد الغريم كان أقوى وأعتى ، وبعبارة أدقّ كان أكثر خيراً ،وأنقى وجوداً ،ومن جديد عاد يفكر بالتخلّص منه، وأخيراً بات مستعداً لقتله،نعم .. فكر جاداً في أنّ يقتله؛ ليتخلص منه.

هو غريمه من سنوات طويلة ، يلازمه منذ حداثته ، دخل في حياته دون استئذان ، بين الظلمة والنّور كان مسكنه ، ثم امتّد ليسيطر على حياته ، ويسوّد نفسه سلطاناً على رغباته ،ورقيباً على شرور نفسه ، التي غلبته أحياناً ، وغلبها كثيراً بمعونة ظلّه الاستثنائي.

نعم .. ظلّه كان هو عدّوه اللدود ، وغريمه الملازم ، كان ظلاً عجيباً ، يلحق به إذا هرب ، ويسبقه إذا توقّف ، لا يفارقه لا ليلاً ولا نهاراً ، يكلّمه طويلاً، يزجره عن الشرّ ، ويدفعه نحو الخير ، يقهر به ذلك الظلام الذي يتضخّم في الجسد ؛ليجرّها إلى دنيا الظلام ، هو مخلوق من الظلام أيضاً ، ولكنّه نور على نور ، عندما يتكلّم يفيض نوره ، فيشيع في نفس صاحبنا الرحمة

والحبّ ، لا يأكل ولا يشرب ،ولكنّه يقتات غلّ قلبه ، وشكوك نفسه ، ووساوس سريرته، له قدرّة عجيبة على التلاشي في داخل الجسد ، ليجده في كلّ مكان في ذاته ، يدير دفة إنسانيته ، ويعلي من قيم وجوده البشري.

لا يعرف هذا الظلّ المنطق الفيزيائي ، ولا يخضع لنواميس الطبيعة ، يرافقه في كلّ مكان ،يتخطّى حدود الظلام والنور ، يتمدّد إلى جانبه ، ويشاركه في أفكاره وهواجسه ، وليس غريباً إنّ قال إنّه أثيره في بعض الأوقات، ولكن على الرغم من كل ّذلك فهو عدوه الذي لن يفتأ يقاومه حتى يتخلّص منه .

كان صغيراً جداً عندما حصل على هذا الظلّ العجيب ، لم يكن قد تجاوز العاشرة ، يومها دهس دجاجة الحاجة خضرة بدراجته ، وكاد يتهم ابن خالته الذي يغار من شقرة شعره ومن جمال مبسمه بهذه الجريمة ، ولكن ظلّه أبى عليه إلاّ أنّ يعترف بالحقيقة ، عندها وبّخته الجارة بشدّة ، وكادت تضربه ، ولكن والده كان فخوراً بشجاعته ، ونقدت أمّه وهي صاغرة الحاجة ثمن الدجاجة من مصروف البيت ، ليلتها سعد بهذا الظلّ الخرافي الذي يدفعه إلى دائرة النّور، وقدّر بمنطقه الطفولي أنّ السماء خصّته بهبة سخيّة واستثنائية ، في ذلك المساء تمدّد ظله إلى جنبه، كان منكمشاً وصغيراً وأقل طولاً مما رآه قبل ساعات ، في ما بعد عرف أنّ ظلّه يصبح وحشاً كاسراً عندما يقترب من خط الشّر ، ولكنّه يعود ليصغر ، ويعلو السلام سواده عندما ينتصر خيره على الشّر.

لكنّه كره ظلّه مع أوّل عصاة ألقمها إيّاها المعلم غافر عندما حاول أنّ يغشّ ، ففضحه الظلّ وأبى عليه ذلك ،تمددّ كالمارد وَفْق عادته ، شلّ حركته ، وألجم لسانه ، ثم أسقط قصاصة الغشّ من يديه، فقبض المعلم الأحول عليه بالجرم المشهود ، ولولا مكيدة الظلّ تلك لما كان لمعلمه أنّ يفضح أمره ، في تلك الحادثة المشؤومة عدّ على يديه مئة عصاة غليظة ، كاد لحم يديه أنّ يتقطّع ، بعضاً من أغشية أصابعه تفسّخت بالفعل ، فيما كان صبية صفه يعدّون بتشفٍ ودون رحمة وبصوت واحد وكأنّهم جوقة من الحمير العصي المنهالة على يديه الصغيرتين بتتابعٍ مرهق .

من يومها لم تهدأ الحرب بينه وبين الظلّ، كانت سجالاً ، كثيراً ما كان يّهزم ، كان يغضب لهزيمته ، كان يفرح لهزيمته ، بمعنى أدّق كان فريسة لشعور مختلط يشبه أن تضع إحدى يديك في ماء ساخن والأخرى في ماء بارد ،فيأتي الشعور متشابهاً مختلطاً معروفاً مجهولاً ، كلّ ذلك ويزيد في لحظة واحدة.لكن ما كان يعيه تماماً أنّه عندما يضع رأسه على وسادة النوم ، ويخلع نعليه على باب عالم الأحلام ، كان يدخلها مطمئناً آمناً راضياً . وفي الصباح تبدأ معركة جديدة ، يشعر أحياناً أنّها حلقة صغيرة من ناموس طبيعي ينتظم دواخل البشر ، ويملي عليهم سلوكياتهم.

كان كثيراً ما راقب من حوله ، وكاد يجزم أنّ معظمهم يملك ظلاً مشابهاً لظلّه، وإلا فكيف تذوق أنفسهم معنى النوم ؟ وكيف

تهتدي إلى طريق النور؟ كلّ نفس تحتاج إلى ظلٍ يرشدها إلى سبيل الحق ، لكنّه لم يحدّث أحداً أبداً بشأن ظلّه العجيب ،فقد كان يُؤثر السلامة على الندامة ، ويخشى أنّ يُقدح في قواه العقلية.

لكن اليوم وبعد سنين قد طالت في معركته مع صديقه العدو ، أو عدوه الصديق ، بات يحتاج فعلاً إلى التخلّص منه ، يريد أنّ يرتقي الظهور ، ويجلس على السُّدة ، الكبير الغريب همس في أذنه البارحة قائلاً بلكنة غريبة عن لغته الأم : "بينك وبين أحلامك ذلك الظلّ، تخلّص منه ، وستصفو لك الدنيا".

إذن هم يعرفون عن ظلّه ، بات من الملحّ أنّ يتخلّص منه ، أن يقتله سواده الذي يضيء مساحات روحه الواسعة وإلى الأبد ،فكّر ودبّر .

و أخيراً مات ظلّه، بل قُتل ظلّه .. هو من قتله ، كان موته حزيناً، ولكنّه عاد وعزّى نفسه قائلاً : "ولكن موته كان ضرورياً" . كان يجلس في ليلة مقتل ظلّه إلى مجموعة من الرجال الذي يرتدون السواد والموت في أشهر أبراج المدينة وأبعدها وأكثرهاحصانة نزولاً على رغبتهم،المشروب والزهور وأطيب أنواع الطعام كللّت جلستهم المشؤومة عليه وعلى ظلّه وعلى وطنه ، ضحك معهم كثيراً،ونادمهم بكلام بذيء رطنه بلغتهم الهجينة الطارفة، عاشر مخاوفهم، وجادلهم طويلاً في مكاسبه من بيع الوطن والشّعب،شعبه هو،كان الظلّ يتمدّد وينهر ويزجر،ولكن دون فائدة،قطع أيّ صلة به، دفع به إلى

منطقة الظلام ، ليلتها كان ظلاً مكسوراً حزيناً ، وكانت قيودٌ تكبّلة دون رحمة ، في عيون الرجال الغرباء ،في العيون الزرقاء رأى ظلّه ينازع ويلفظ أنفاسه ، وعندما وقّع أوراق البيع ، احترق ظله ،واختفى ، وابتسم الغرباء ذوو الأعين الخرزية.

وأخيراً تخلّص من ظلّه ، قتله من دون رحمة ، لم يرثه أحد ، شعر بشيء من المرارة في أثر رحيل ظلّه ، ولكنّه قد ارتاح أخيراً ، ولكن سرعان ما اشتاق إليه ، من جديد دبّر أكثر من مكيدة لكي يبعث الحياة في بلاه ، تلفّتَ آلالف المرات بحثاً عنه ، عاد الشيخ سلامه وصنع له تعويذة جلب وحبّ ،لكنّ الظلّ لم يعد ، عندما راسل المخابرات في شأن البحث عنه ، بعثوا له مغلفاً مع مخبر في ليلة غير مقمرة ، وفي المغلف كتب :" نعتذر،سري جداً ومسجّل خطر".

اشتاق كثيراً إلى ظلّه القتيل ، نوره المسفوك ما انفّك ناراً تحرق يديه ، كلما فكر في البحث عنه ، تذّكر أنّه لن يعود وتوقيعه ما يزال على صكّ البيع في يد الغرباء ، لم يستطيع أنّ يسامح نفسه ؛ لأنّه بكلّ وحشية وصفاقة قد قتل ظلّه !!!.

صباح الخير... يا دكتور

تأففتْ ثم قالتْ له بنبرة حاسمة تشفّ عن ضيقها من اختلاط الأمور على مداركه: "صباح الخير يا دكتور...قل له فقط صباح الخير يا دكتور .. ابتسم له .. ولا تقل شيئاً آخر".

" هل فهم ما قُلتُ له؟ لعلّه فعل ذلك " هذا ما كانت تقوله لنفسها ،وهي ترتكز إلى حاجز حديدي صدىء يسّور ذلك المرتفع من الجرف العتيق المشجّر على استحياء وبشيء من الفوضى والتبعثر،وتناغي بعطف باقة الزهور التي تشيعها بعينيها مع فتى حانوت الزهور الذي انطلق بها بعيداً. من هنا تستطيع أنّ تكشف جزءاً من ذلك المشفى الذي تبتلعه الأسواق القديمة ، وتتنازعه آهات الفقراء ، ويغور في غابة من غيوم القتام التي تصطنعها السرفيسات القديمة ، والحافلات

المكتظّة بزبائنها المحمّلين بفقرهم وغُلبهم وآمانيهم التي لا تتحقّق.

هو لا يستطيع أنّ يراها من هنا ، وهي لا تتوقع أنّ تراه من هنا ، لكن تستطيع أنّ تلمحه ببريقٍ سخين في ذاكرتها ، فتلعق صورته عن جدران الذاكرة ، هو لا يستطيع أن يراها من هذا المكان ، لكن لعلّها تلوح الآن في ذاكرته صورة لامرأة تتشح بالصّمت ، تأتي من المجهول ، يُلّح صوتها على أذنيه مرات كثيرة في اليوم ، يتمطّى عبر أسلاك الهاتف ، ينبعث عميقاً يناجي رقته ولطفه ، ويُداعب فضوله وروحه العذبة الشقية كما الأطفال ، المتدثرة بدثار مهيب مصطنع من الوقار والجديّة اللتين تفرضهما وظيفته الحسّاسة على قسماته الغارقة في سُمرة دافئة،تمتزج بطعم وببرودة الشمال الذي جاء منه قبل أشهر محملاً بالثلج والعلم والحبّ ووشائح تكاد لا تنفصم مع حوّاء ذلك الثلج.

عرفته قبل أن يعرفها ، لا.. لا ،بل عرفها قبل أن تعرفه ، لم يعرفها امرأة شرقية تمور بدفء وحنين لرجلٍ أسمر يتدثّر بالبياض ، البياض الملائكي الموزّع بين الرحمة والواجب ، ولكنّه عرفها حالة مرضية خطيرة ، تنزف بشدة حتى تكاد تنزف روحها ، يكاد الموت يمتصّها ويدخلها قسراً في مملكته السوداء ، لم يعرفها عيناوين وفماً وبشرةً كما تُعرف النساء ، ولكن عرفها جمجمة محطّمة ، وجسد طحنته سيارة متهوّرة ، ومضغته ، ثم قدّمته لمبضعِه الماهر. لساعات طويلة أعمل طبّه

ومبْضَعِه في جسدها ، وتحدّى بحالتها الموت ، وألجمه بعيداً ، راقبها لأيام في كبسولة من الأجهزة حبسها فيها ، وحبس نفسه فيها إلى جانبها ، وحدثت المعجزة ،واستيقظت ، كثيرٌ من العيون كانت حولها: عيون أقارب ، عيون أطباء ، عيون ممرضات ، لكنّ عينين اثنتين تنفرجان باتساع مبسوط ، يسكنهما احمرار السّهر والتعب ، فيخلّف سواراً من الشفق الأحمر حول بحيرتيهما البنيتن اللتين تعكسان في صفائهما المجلّل بدموع الرأفة والرّقة أشجار عينيه اللتين تسميان رموشاُ كانتا في انتظارها بفضول استثنائي ، أحسّت بكلّ " غرزة " في جمجمتها ، ابتسمتْ بصعوبة وقالتْ له:" صباح الخير يا دكتور" ابتسم لها ، ثم اتّسعتْ ابتسامته مثل حلقات من السُّكر ، وأصبحتْ صهيلاً جميلاً يرتجّ برجولته السمراء،وقال:"نحن في المساء الآن".

وغاب ذلك المساء، وغابتْ الممرضة ، وغاب الطبيب ، ورحلتْ البقع الحمراء المتورّقة من جسدها ، وتركتْ الغُرز إكليلاً شوكياً لا يُنسى في جمجمتها، وأورثها الموت الذي هربتْ منه عرجاً يلازمها في كلّ حياتها،ويعيق ركضها الذي تعشقه ويعشقها ، عرجاً يُذل كبرياء أنوثتها. وبقي صهيله في أذنيها،وألحّ الصهيل، وألح..وألحّ...وألحّ؛فكان الهاتف الذي يشقّ صمت المناوبات الطويلة والمضنية في ليالي مناوبات طبيبها الخيلي في كلّ مساء،في البداية كانت مجرّد امرأة أسماها لاهياً المزعجة، تخترق صمته الليلي، وتنزلق بلا استئذان في

نذره الليلي حيث يقدّم نفسه قرباناً من الانتظار في معبد مرضاه ، في ما بعد أصبحتْ صوتاً يألفه ، ثم اعتاده ، ثم نشأ في نفسيهما شيئاً لا يعرف هو له اسماً ، وتعرف هي اسمه تماماً ، وتدندنه في أذنيه الآف المرات .. كانتْ تخشى أنّ تلقاه ، كانتْ تشعر أنّ عرجها المكبّل بحذاءٍ حديدي أجشٍ سوف يُصمّ أذنيه ، خشيت أنّ يطغى هذا الصليل البارد على نعمة صوته ، وعزيف أوتار قلبها ، هربتْ ، ولكن إلى متى ؟

وأخيراً قررّ أنّ يلقاها ، وقررّتْ أنّ تلقاه ، ولكن في الشتاء حيث تخنق الرطوبة صكيك حذائها الحديدي ، وحيث يمكن أنّ تسمح لنفسها بأنّ تختبىء في أحضانه الحارقة ، وحيث لا تشتمّ عبق عرق عناء يومه الطويل، ولا تسمع هسيس ساعاته الطويلة التي يقضيها في التنقّل بين المرضى والموت.

اليوم هو موعد اللقاء، بدأته بممازحة طيفه المتخيّل في المرآة ، وقالت: " صباح الخير يا دكتور " ، وكتبتْ على بطاقة الزهور التي أرسلتها له:" صباح الخير يا دكتور " . وعندما أودعت قفص طيور الحبّ لصبي حانوت الطيور ، الذي أرهقها وهي تلقّنه ما عليه أنّ يقول ، وما عليه أنّ لا يقول ، قالت له: "قل له: صباح الخير يا دكتور،وحسبك " ، وغاب الصبي في زقاق المستشفى القديم ، ومعه الزهور الطامحة إلى اللقاء وعصفورا الحب الصغيران.

وبقيت تنتظر تلك الساعات التي تتدفق ببطء حيث ستلقاه عند هذا السياج كما اتفقا ، أزفَ الوقت ، وأفلتْ الشمس ، اقترب

موعد لقاء الدكتور ، وتراءى في مسمعها صوت طائري الحب اللذين أسمتهما: نيران وأشواق.

اقتربتْ حد الالتصاق من السياج ، راقبتْ الطريق .. هي لا تستطيع احتمال وطأة السعادة المنتظرة مع الدقائق القادمة ، والسياج كذلك لا يحتمل الانتظار ، كما لم يعد يحتمل الصدأ والقدم ، ينخلع من أظلافه الصخرية ، ويستسلم إلى النهاية ، وتهوي المنتظرة معه.

ونزل المطر... وانتظرها على التلّة الموتورة بسياجها العجوز ، ولم تأتِ . وانتظرته في غرفة العمليات .. ولم يأتِ ، وحيث وُضع حذاؤها الحديدي الباقي الوحيد بعد رحيلها ، كان هناك طاقة ورود حزينة ، وبطاقة كُتب عليها صباحاً بماء الحياة والانتظار وشهوة اللقاء:" صباح الخير يا دكتور".

صاحب الصوت الأجشّ

أحياناً نرغب في أنّ نصرخ في بلّورة كاتمة للصوت ، نرغب في أنّ نبكي، نحتاج إلى البكاء ، ومن هو الذي لا يحتاج إلى البُكاء ؟ لعلّ الأموات فقط هم وحدهم الذين لا يحتاجون إلى ذلك ؛ لأنّهم – ولحسن حظّهم – هاربون ومن دون جهد. ولكن ماذا عمّن يريد أنّ يهرب دون أنّ يُلزم بالعودة مخذولاً متعباً يجترّ مخازيه وهزائمه؟ يريد أن يبكي دون أن يعلّل سبب البكاء بأسباب مقبولة اجتماعياً ،لا يريد أنّ يشتكي وحسب، بل يريد أنّ يُحتفى بشكواه ، دون أنّ يحمل عبء ماذا بعد ؟ولهذا كنت أنتْ،ولهذا كان اللقاء الغريب..

–فقط ؟

–والبقية تأتي يا صاحب الصوت الأجشّ.

–ليتك تخبريني باسمك.

–سمني ماتشاء.

–اسميك حواء.

–أمّا أنا فاسميك صاحب الصوت الأجشّ.

كلنا نحتاج إلى صوتٍ يأتي من المجهول ،ويكون المجهول نفسه ، ومن هنا بدأت الحكاية ، تماماً بدأت منذ أنّ انتفخت أوداج حياتي وامتدّت وتشّعبت ، ووجدتُ فيها كلّ شيءٍ إلاّ نفسي، ولم أجد ذلك الذي نسميه شطر أنفسنا. وفي اللحظة التي شعرت بها بذلك الخريف الذي يعصف بالأرواح التي لم تذُق طعم رحيق الألفة ، بدأت علاقتنا الأثيرية المجنونة.

فكّرتُ في أنّ أشتكي لأحدٍ لا أعرفه ، ثم لا أعود إلى لقائه ، كي لا أجد في عينيه دمعة الصدمة والاستغراب ، لا أريد أن أرى نفسي في عينيه طفلة باحتْ له بأسرارها الشمسية ، لا أريد أن تذكّرني نبرة صوته بضعفي وطيشي وأحزاني ، ولكن أين أجد ذلك الإنسان ؟ عندما عرفتُ الطريق إليكَ ، وجدتُ بضعاً من نفسي أو أضعتها لا أدري ، ولكنني وجدتكَ.

فكّرت في أن أطرق أحد الأبواب بحثاً عن مجهولْ يأخذ بيديّ إلى الألفة،مرة أخرى طرحت على نفسي فكرة أن أكلّم أحد المارة أو أن اصطاد بعشوائية عبثية أحد الفضوليين في

أحد المتنزهات لأكلّمه وأكلّمه وأكلّمه ،ثم أهجره دون عودة،ولكنني تراجعت سريعاً عن كلّ وسوساتي اللذيذة، ومرة أخرى فكرّت في أن أكتب مذكراتي،ولكنني تذكّرت آسفة أنني لا أجيد الكتابة ،ولا أفكّ أبجدية سحرها.

الهاتف.. نعم الهاتف.. حرّكت قرصه القديم بضع مرات بشكل عشوائي ، وجاء صوت لا أعرفه ..صوت يغلب عليه الكسل ، أجشّ ، وتعلوه قابلية واضحة للاستفزاز ، ولكن لا تغيب عنه قابلية الدعابة ، اضطربتُ ، وشككتُ بجدوى هذا البحث العبثي ، كدت أصكّ السماعة ، و استغني عن خطة البحث الغريبة ، لكنني تمالكتُ نفسي واستجمعتُ شجاعتي المزعومة ، وقلت: مرحباً.. أنا أبحث عن صديق من غير شروط ، أتحب أن تسمعني ؟

جاء الصوت بتمطٍ يتأهّب للتخفّز ودهشة لا يحاول أن يخفيها:" ماذا ؟"

أجبته بنبرة لا يغيب عنها أمل الرجاء في الإقناع:" أنا أكره الأسماء والمعلومات وأرغب في صديق غير فضولي"

لم أسمع إجابة.. وساد صمت قلق ، ثم قلتْ بخجل واضح:" أنا آسف.. أعتذر عن الإزعاج".وكدتُ أقفل الهاتف ، لكنّ الصوت الأجشّ استدرك سريعاً، وقال بنبرة عذبة: "ومن يحبّ الأسماء والمعلومات ؟!"

وكانتْ بداية القصة أو نهايتها أو أزمتها ، حتى أنّني لا

أعرف أيّ جزء من القصة كانت هذه الحادثة ، من يهمّه أن يعرف ذلك ؟! المهم أنّ الصوت الأجشّ أصبح مرآة روحي ، وأصبحت أسعى جاهدة كي أعود إلى البيت سريعاً بعد الخروج من يمّ العمل اليومي ، أخلع نفسي على بوابة البيت ، ثم أقفز سريعاً في متعتنا الأثيرية ، متعة الحديث وشهوة الحرّية في الكلام دون قيود أو مخاوف.

أصبحنا عبر الأثير واحداً منقسماً إلى اثنين خارجه ،يلتئمان كلما مارسا شهوة الكلام ، وباتَ الصوت الأجشّ هو ضميري الذي يشاركني نبضي ووعييّ ، وأصبح الهاتف معشوقي الأول ، حتى أنني استدخلت صوت رنينه في جهازي العاطفي ، والجهاز العاطفي هو مصطلح للصوت الأجش يعني به منظومة الصوت والقلب وأنا وهو والحريّة، وغدا لرنين الهاتف عزيفٌ موسيقي أخّاذ يناجي مشاعري،ويستثير كلامي.

ولكي أحضن صاحب الصوت الأجش حضنت الهاتف لليالٍ كثيرة ، بعد أنّ أصبح من عادتنا أن نقطع معظم الليالي في الحديث الذي لا يعرف النهاية ، وفي الصباح استيقظ، وقد غسل الحديث كلّ أدران اليوم السابق ، وبات حنيني أبداً لمطهري الأثيري.

طوال أشهر لم أعرف عنه أي شيء غير أنّه أثيري السرّي ،وأنّه مثقف أعزب يعيش وحده في مكان ما، أمّا هو فلم يسألني إلا القليل ،أو بعبارة أدقّ لم أجب إلاّ عن القليل من أسئلته الفضولية التي تدور حولي بشكلٍ أو بآخر.عندما عرض علي أن نلتقي خارج الأثير صُعقتُ ، وتذكّرتُ بجهد يوازي قطع سنين ضوئية في لحظات أنّنا في كوكب واحد ، وأنّنا كائنات مرئية ، وأننا نستطيع أنّ تلتقي ، ولكنني رفضتُ لك ، وتمّنيتهُ أنّ يبقى حلماً وجنيّاً لا أعرف اسمه ، يقبع في خرانتي السّرية ، ويغادرها فقط

عندما أفتحها ليلاً وبالسّر.ومن جديد نسينا أمر اللقاء ، ومضينا في عبّ شهوتنا السمعية.

بعد أشهر قصيرة لم تحصها سعادتي؛لأنّ السعادة لا تُحصى،انقطعت المتعة ، وغاب الصوت الأجشّ دون سابق إنذار ، وتقطّعت نياط قلبي وأنا أسمع الرنين دون أن ألفيه يرفع السماعة ، ويدخلني في دنياه ، لأوّل مرة أشعر أنّني طفلة صغيرة مسجونة خارج جنة، أسوارها زجاجية شفافة ،لكن منيعة لا تسمع رجاءات الاسترحام . أخيراً أزمعت أمري ،وقررتُ أن أجري وراءه في المجهول ،أخذتُ إجازة من عملي، وفي ذلك اليوم بالذات ، أقفلتُ الأبواب ،وأسدلتُ الستائر،وأضربتْ عن الطعام،وبدأت أبحث عنه في بلورة سحرية تخيّلتُ أنّني أملكها،طلبتُ رقمه لعشرات المرّات دون إجابة .

بعد أسبوع من المحاولات رُفعتْ السماعة ، وتتدفّق صوت نسائي رقيق بدل من الصوت الأجشّ ، ارتبكتُ بشدة ، وبجنون هربتْ كلّ الكلمات كما رحل الصوت الأجش ، سمعتْ الصوت الاجشّ يخاطب صاحبة الصوت الرقيق من بُعدِ أمتارٍ من الهاتف بنبرة لا مبالية : "مَنْ؟" فتجيبه:"لاأحد يجيب !" فيقول لها كانّه يريدُ أن أسمعَ كلماته:"إذن اغلقي الهاتف". أغلق الصوت الرقيق الهاتف بفظاظة،وعاد الصوت المتقطّع هو كلّ ما أسمع عبر الاثير .

وضعتُ السمّاعة في مكانها، ثم رفعتها من جديد مرة أخرى ، وأدرتُ قرصه بضع مرات بشكل عشوائي ، جاء صوت أجشّ آخر لا أعرفه ، كدتُ أقول شيئاً ، لكنني رغبتُ أكثر في الانزواء في ذاتي ، أغلقتْ الهاتف ، سحبتُ سلكه من مكانه ، تكوّمت في فراشي في مساحة صغيرة ،أصغر مما يجب، وتذكّرت أنّني في حاجة منذ زمن طويل إلى النوم ، فهناك لا أسماء ولا معلومات ولا فضول... ولا أنا ...ولا صاحب الصوت الأجشّ.

المواطن الأخير(١)

كتنينٍ غاضب تمور الأرض بنهايتنا المخفية ، تقدّم نفسها عذراءً لمعبودها البحر ، تهتز بشدّة ، تتراقص كأنّ آلهة غاضبة تصبّ على البشر جامّ غضبها ، الكلّ مستلقٍ ينتظر النهاية المحتومة ، المباني والمعابد بدأت تتهاوى ، لم يعد هناك صوت ينبس ليبشّر بأحلام الباعة ، وضحكات الأطفال ، سدّ المدينة قد استجاب لقدره ، وبات الماء يتنزّى منه من كلّ مكان ، الموت يفغر فاه اللعين ، وصوته يبتلع الصمت الذي يردّد صرخات (باخوس).

"اللعنة على قرار مجلس حكماء القارة !! كيف يتصوّر أولئك العصبة من المجانين أنّ الحل الأمثل هو إغراق القارة ؟! كيف سار الجميع كنعاجٍ خرفة وراء هذه النبوءة الحمقاء ؟ وكيف

صدّقوا أنّ الدنيا مقبلة على وقتٍ سيصبح البشر فيه وحوشاً ، وتُعمل فيه آلة الدمار جبروتها في الحضارة ، وتئد الإنسانية في باطن الأرض ، ويُعلن الظلم شعاراً ، وتُحرق إنسانية البشر في آتون أرضٍ قاحلةٍ وتراب وهواء مسممين ؟! هذا لا يمكن أنّ يحدث أبداً

، أنّى للأرض أنّ تصبح جهنم ؟ أنّى للبشر الطيبين أنّ يغدوا وحوشاً ؟! "

لكن ما الفائدة من كلّ هذا الاستنكار؟ هذه الحضارة قد أخذتْ قرارها ، وها هي القارة تسير ببطء نحو الغرق في أعماق البحر ؛ هرباً من نبوءة قد تحقّق ، وجهنم قد تُبعث من هذه الأرض ، لكن ما ذنبي لأموت ؟ ما ذنب زوجتي الرقيقة (نرفانا) لتصبح طعاماً للأسماك ؟ "أيُها المستسلمون عليكم اللعنة ، أنا لا أريد الموت ، الويل لمجلس حكماء أطلنطا".

دخل (باخوس) مقرّ الأعظم لحكماء القارة، فقد كان بمقدور أيّ شخص أنّ يدخل إلى المجلس ليقول ويسمع ويشاهد ما يريد دون مانع ؛ لأنها أرض تعرف العدل والحب والمساواة. دخل إلى القاعة الكبرى ، كلّ الحكماء كانوا يجلسون بصمت وخشوع بانتظار الموت غرقاً مع قارة أطلنطا، جلال الموت يخيّم على المكان ، ماء البحـــر يغمر الأقدام حتى (١) ما قبل الرّكب ،يحدّق في العيون الشاردة،ويقول:" بحيرة طفلٍ لا يستطيع أنّ يفكّ طلاسم ما يقرأ :"كيف تقدمون على هذا الانتحار؟ كيف تقدمون على الموت وتحطيم هذه القارة العظيمة التي تنعم بالسعادة والحبّ بسبب نبوءة غبية...!؟" قال كبير الحكماء

بتؤدة وهدوء آتيان من البعيد :" هذه القارة قامتْ على المعاني الإنسانية والجمال وستموت قبل أنّ تشهد موت المعاني السامية".

– "ولكن ماذا لو كانت النبوءة خاطئة ؟ أنموت مقابل لا شيء ؟ أتقدموننا جميعاً قرابين للظن؟! أنفرّ من وجه الآتي المزعوم؟!"

– "إنّ كانت النبوءة خاطئة ،فالبشر لا ينقرضون، وستأتي بشرية سعيدة مثلنا تماماً.. ثم إنّ هذا القرار كان بموافقة الكلّ، أنتَ تدري بذلك من دون شكّ".

–"أنا لن أموت أبداً ... أنا لن أموت .. أتفهم ذلك ، سأجمع من المستقبل كلّ الأدلة والبراهين التي تثبت أنّكم صدّقتم أكذوبة ، وقدّمتم أنفسكم قرابين لنبوءة غبية ، أنا لن أموت .. أتفهم؟"

"أطلنطا .. !! أنا لن أموت،أتسمعين ذلك؟"

كان الوقت عند الفجر تماماً ، الأرض تستقبل نور الشمس الذي يولد بهدوء في الأفق الذي يردّد صدى صوت (باخوس) الذي يُقلق صمت البحر قائلاً : " أطلنطا أنا لن أموت " .

في قاربه الصغير كان واقفاً ، يودّع بعينيه تلك القارة الجميلة التي تغرق بسرعة ، جنّة تغرق في بطن الماء ، تُدفن في رحمها قبل أنّ تُدفن في واقع بشع صوّرته النبوءة ، اللعنة على النبوءات ، الجنة اختفت إلى الأبد لأجل نبوءة غبية ، العالم

المثالي غرق خوفاً من صورته في مرايا اللا مثالي ، الجمال غرق خوفاً من البشاعة ، الرّقة غرقت خوفاً من القسوة.

تبسّم بحقدٍ وهو يرقب تلك البقعة الساكنة من الماء التي ابتلعت لتوها أطلنطا ، وابتلعتْ (نرفانا) كذلك ، صورتها الجميلة تلوح

في الأفق المائي ، قلادتها التي تطوّق عنقه كانت آخر شيء بقي من سحرها، لسنوات طويلة شعر (باخوس) بحزنٍ عميقٍ ، ثمّ نسي الحزن ، ولكنّه لم ينسَ هدفه ، وتوّج غربته ووحدته بتلقيب نفسه بلقب (المواطن الأخير)؛لأنّه آخر مواطن بقي على قيد الحياة من سكان قارة اطلنطا.

عاش لآلاف السنوات يبحث عن الأدلة التي تثبتْ خطأ النبوءة ... في البداية شهد أرضاَ بكراً لم تعرف إلا اليسير من البشر والمعارف ، ثم كثر البشر ، في البداية ذاقوا البؤس والضياع والجوع ، وبنوا جزءاً يسيراً من الحضارة ، وحول الحضارة نشأت حضارات ، وبدأ الإنسان ينسى أخاه الإنسان ، وطمع كلّ إنسان في لحم وجسد وزوج ووطن الآخر ، وبدأت الحروب ، وأصبح الإنسان وقوداً لحرب ضروس لا تنتهي أبداً.

ظنّ (باخوس) أنّ الأمر تسلية أو نزوة ستنتهي سريعاً ، لكنّ هذه اللعبة المقيتة راقت لصنف من البشر ، وفُرضتْ على مَن لا تروق له ، ودفع الضعفاء الثمن دائماً ، وغدتْ كلّ الحضارة مقبرة للحضارة التي سبقتها ، وبات الموت والقتل هما تاريخ وماضي وحاضر الشعوب.

كلّ قيمة حملها (باخوس) معه من حضارته البائدة ، مثل :الحبّ والعشق والعطاء والتضحية والآلاف من الفكر الدافئة لم تصمد أمام هذه البشرية التي جنّ جنونها، وظلّت عن جادّة الطريق ، حتى

كلمة الله والدين والعبادة والسماء والجنة والنار غدت أعذاراً مبتكرة لأجل القتل والإبادة والتعذيب.

في كلّ مكان كان هناك الموت والدمار ، كلّ شيء جميل يحترق ، النيران والقتل والتعذيب هما آخر ما تبقى لهذه البشرية التعسة من نفسها!!.

حاول (باخوس) أنّ يزرع الحبّ والصدق في طريقه ، وأنّ يجمع الأدلّة على خطأ النبوءة ، ولكنّه كان يقف في كلّ مرة ليشهد حضارة تتحطّم وناراً تحرق البشر والسعادة ،ليخرج دائماً بلقب (المواطن الأخير)،الشاهد العيان على جنون البشرية ، وهو يحمل بضع مئات من الأدلة على صدق النبوءة ، هل كان مخطئاً ؟! هل البشرية في طريقها إلى الدمار ؟ قدّر أنّه يجب أن يعطي نفسه وهذه البشرية فرصة أخرى.

وانقضتْ ألف سنة أخرى بسرعة ، وجاء القرن العشرون ، الملابس و المدن الجامعات والمباني و الشوارع ، كلّ القرائن تدّل على أنّ البشر ينعمون بالسلام ، ولكن كانت بضع سنوات كافية لتبرهن(لباخوس) أنّه قد أخطأ للمرة الألف ، فهاهي البشرية تأكل بعضها، العالم ينقسم إلى معسكرات،كلّ معسكريعدّ الحطب والنار للمعسكر الآخر ، الحروب العالمية

تشتعل في كلّ مكان ، الآف البشر يذهبون ضحايا ، المال يتدفق أنهاراً ليصب في مصارف اللصوص ، الفقراء يموتون جوعاً ، أرض تحترق وأخرى تغرق ، بشر يُقتلون ويُسرقون ويُحرقون ، أطفال يُباعون ، أعضاء وأشلاء في كلّ مكان.

العلم في كلّ مكان يكادّ يكون مسخّراً لقتل وإبادة الإنسان ، المعتقلات والسجون تملأ الأرض ،والبغايا سيدات المعمورة ، والمجانين سادته ، الأرض تسرق دائماً ، آخر كلّ طريق قتلى وموتى ولاجئون وثورات في كلّ مكان باسم الحرية والإخاء والعدل ، وفي مذبح الثورات لا تذبح إلاّ الحرية والإخاء والعدل !! وآخر أخبار البشرية تقول:" هناك قتل ، قنبلة فريدة من نوعها، تحتاج إلى تجريب ".

اليوم أُلقيتْ القنبلة الموعودة على هيورشيما ونجازاكي ، الموت الأحمر في كلّ مكان ، بقايا البشر والأشلاء تملأ الأماكن ، الأرض أصبحت موات ، والهواء فاسد ، والتراب مميت ، والمنتصر يقول بأسنان تلمع ببريق الوحشية :" القنبلة نجحت في ما أُعدتْ له".

" لقد صدقتْ النبوءة ... البشر أصبحوا وحوشاً ، البشر أصبحوا وحوشاً "لُجج البحر الهائم طغت على صوت (باخوس) المفجوع بإنسانية البشر ، أمام البحر ، فكّر للحظات بإعطاء فرصة أخرى لنفسه ولهذه البشرية المُروعة ، تنهّد طويلاً ، شعر بغثيان وهو يبصق دماً وقيحاً من صدره ، هزّ رأسه بأسف بالغ ،وردّد في نفسه وقد يئس من هذه البشرية:" البشر

أصبحوا وحوشاً ... لقد صدقت النبوءة".وألقى بنفسه في الماء ، واختفى إلى الأبد ، كما اختفت أطلنطا المتدثرة بنبوءتها الملعونة.

تقول الأسطورة إنّ هناك قارة تسمى أطلنطا قد غرقتْ في البحر الأبيض المتوسط لسببٍ مجهول،وإنّ هذه القارة كانت مثالاً للحضارة والمساواة والجمال والسعادة والإخاء.والأسطورة لا تذكر أيّ سببٍ أو نبوءة تبررّ غرق القارة،وإنّما مايرد في القصة هو رؤية خاصة للكاتبة.

الفهرست

١-الكابوس.

٢-عالم البلورات الزجاجية.

٣-أوديسيوس مرة أخرى.

٤-حكاية شجرة.

٥-حادث سعيد مؤسف جداً.

٦-بطل المكنسة.

٧-سُهاد.

٨-مهرجان البصل.

٩-المستأنس.

١٠-بحيرة الساج.

١١-قصة طويلة.

١٢-صانع الأحلام.

١٣-آنسة قطة.

١٤-الضفة الأخرى.

١٥-صداع قلب.

١٦-القاتل.

١٧-صباح الخير يادكتور.

١٨-صاحب الصوت الأجشّ.

١٩-المواطن الأخير.